٨٦

روايات أحلام

ترقص مع الريح

www.elromancia.com

مرمورية

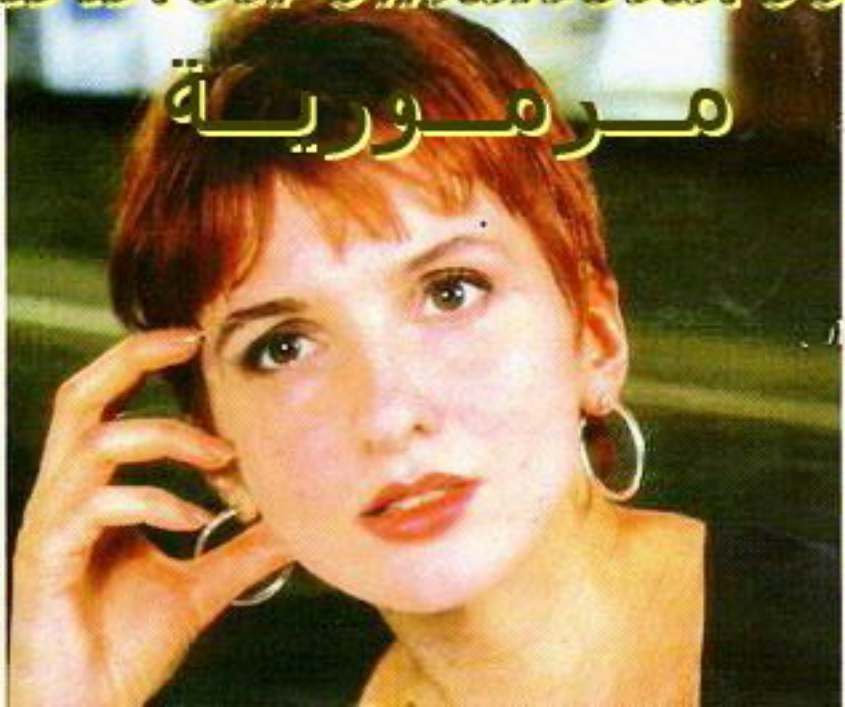

روايات أحلام

ترقص مع الريح

كان رئيس سيرينا رجلاً من النوع الذي يجب أن يوضع عليه تحذير حكومي: «هذا الرجل خطر عليكِ، يمكنه الإضرار بسلامة عقلك وقلبك!».

لكن هذا لم يردع سيرينا عن الاختباء في سيارته في محاولة لإنقاذ وظيفة صديقها، ثم وجدت نفسها سجينة معه في كوخ معزول عن العالم. السؤال: ماذا سيفعل بها لانس ستوراي عندما تفاجئهما خطيبته في الكوخ؟ وأين ستختبئ؟

www.elramel.com

١ ـ رجل متفجر

ـ قف جامداً بندكت وإلا خنقتك!

اضطرت سيرينا للوقوف على رؤوس أصابعها لتستطيع الوصول إلى ربطة العنق السوداء التي أفسدها بندكت بارتباكه.. كان أطول منها بقدم، عريض الكتفين، شاباً صغيراً، قوي البنية، شعره كثيف مجعد وذهبي كالذرة.. كان معظم الفتيات ينظرن إليه حالمات، لكن عينيه الزرقاوين كانتا قصيرتي النظر، فهو عادة غارق في عمله بحيث لا يلاحظ شيئاً مما يدور حوله وإذا نسي وضع عدساته اللاصقة أصبح لا يرى الوجوه بل مجرد ضباب.

سألها متجهماً: «هل يجب عليَّ ارتداء هذه البزة التي تشبه البطريق؟»

قرصته في أذنه: «أجل يجب ذلك. إنه حفل راقص رسمي!»

ـ لا أجد حتى الآن سبباً لحضورنا..

ـ سيشارك بهذه الحفلة الجميع. إنها حفلة خاصة بالموظفين، ألا تذكر؟ لا تكن مزعجاً.. عليك عندما ترى لانس ستوراي، أن تكون مؤدباً جداً وودوداً.. لا تقف هكذا وكأنك «حردان».. هل وضعت العدسات؟

ـ أجل.

نظرت إليه بريبة.. إنها تعرفه جيداً.. فلقد كان مع أخوتها الخمسة في المدرسة نفسها فترعرعوا معاً.. مع أن أقربهم إليه عمراً هو كيري،

الذي يكبر سيرينا أكثر من سنة واحدة بقليل، وهو أخوها المفضل.. لقد أمضت طفولتها معه ومع كيري راكضة في أراضي نورفولك الواسعة بغية اصطياد السمك والسباحة.

قالت له برزانة: «هل تقول الحقيقة؟»

تعرف أنه يكره العدسات اللاصقة لأنها تجعل عينيه تدمعان.. احمرّ وجهه كالمذنب، فهو لم يكن قطُّ بارعاً بالكذب..

أمرته فوراً: «ضعها»

بحث عنها في جيب سترته مكشراً ثم راحت تراقبه وهو يضعها.. سيتمكن الآن على الأقل من رؤية لانس ستوراي، هذا إن سنحت له فرصة مكالمته، كما أنه لن يمر به بدون أن يراه، أو يصطدم به بدون أن يعرفه.. فلبندكت رشاقة الفيل عندما لا يرى الوجهة التي يقصدها.

ركز بصره عليها ثم قال مغازلاً:

ـ تبدين رائعة.

فابتسمت له: «شكراً لك، لكن لا تتمادى كثيراً».

كانت سيرينا برنتيس خيبة أمل مريرة لأمها عندما اتضح لها أنها لن تصبح رائعة الجمال.. أنجبت جوانا برنتيس خمسة أبناء على التوالي، ولكنها تاقت إلى إنجاب طفلة واحدة على الأقل، لا تعود إلى المنزل مغطاة بالوحل من لعبة كرة القدم.. طفلة واحدة لا تدخل في شجار أو تقع في أقرب بركة ماء كما يفعل صبيان أسرة برنتيس.. هذا إلا إذا كانت أقرب بركة ماء هي المغطس، وفي هذه الحالة يجب جر الصبيان إليه متذمرين باكين وكأنهم كلاب مضروبة.

عندما كان سادس طفل أنجبته الفتاة التي تاقت إليها طارت جوانا برنتيس من الفرح ووجدت أن الطفلة ذات الخصلات الصفراء والعينين الزرقاوين قد حققت أحلامها، فستكون عندما تشبُّ شابة شقراء لطيفة رقيقة القلب كأمها.

قالت: «سأسميها سيرينا».

صدر عن الذكور المتحلقين حول السرير صيحات اشمئزاز. قال ديوغ ذو الثمانية سنوات:

ـ سيرينا.. يوغ.. كاسم البقرة.

مد السيد برنتيس إصبعه يلامس خد الطفلة الأحمر، فامتدت يدها الصغيرة لتمسك أصبعه.. قال ڤيكتور برنتيس لزوجته مبتسماً:

ـ بقبضة كهذه من الأفضل أن تسميها «هرقل».

أدارت سيرينا رأسها بشره تحاول التهام اصبعه، فانفجر إخوتها ضاحكين حول السرير يشجعونها، ولكن القابلة أخرجتهم جميعاً، وتركت جوانا مستلقية مع ابنتها حيث راحت تنظر إلى الوجه المخملي البريء وعيناها غارقتان بخيالات لا جدوى منها.

ولكن الأم لم تتوقع أن يصيغ رجال أسرة برنتيس سيرينا على منوالهم كما لم تتوقع أن يصبح شعر ابنتها أحمر نارياً ذا لمسة شقراء تحت نور الشمس الساطعة فقط وما توقعت أن تغدو عيناها خضراوين. كان لونهما لون عيني قطة، فحول البؤبؤ الأسود القاتم إطار أصفر يومض حين تغضب.. أما غضبها فكان مستمر الظهور، وهذا ما أزعج جوانا وأبهج ذكور العائلة الذين كانوا يبدأون بالضحك كلما حبت سيرينا خلفهم، تضربهم بقبضتيها الصغيرتين بغضب.

نمّت سنوات من الطفولة مع إخوتها عضلات سيرينا.. وقد علموها الملاكمة والسباحة والإبحار وصيد السمك ولعب كرة القدم، والكريكت والركض كالريح.. عندما أصبحت في الثالثة والعشرين من العمر غدا جسمها نحيلاً صبيانياً إذ كانت تُرى دوماً مرتدية جينزاً وقميصاً إلا في العمل حيث ترتدي البذلة الرسمية الخاصة باختصاصية مختبر وهي عبارة عن مريول أبيض. لقد خيّبت أمل أمها حتى عندما اختارت عملها إذ لم تفهم البتة سبب شغف ابنتها بالعلوم أولاً وبالكيمياء لاحقاً. فقد شعرت بأن من غير المعقول أن تجتذب رجلاً.. وعندما تهورت فقالت ما تظنه أمام سيرينا، تمنت لو أمسكت لسانها. فقد قهقهت سيرينا بقوة، حتى

هرع إخوتها لمعرفة الذي يضحكها وكان أن أغرق الجميع بالضحك بعد ذلك.

قال ديوغ: «ومن يتزوج سيري؟»

صاحت سيرينا متجهمة: «ماذا؟»

ديوغ عريض الكتفين في السادسة والعشرين، ولكنه تعلم أخذ الحيطة والحذر من أخته عندما تغضب هكذا. فتراجع، كاتماً ضحكته..

قالت سيرينا وهي تنظر إلى كل منهم:

ـ لو أردت الزواج لتزوجت، ولكن بعد معاشرتكم ثمانية عشر عاماً بات آخر ما أرغب فيه هو الزواج. لن أكون مجنونة إلى هذا الحد.

قال كيري: «بل جنونك يتجاوز أي حد».

وهرب الجميع أما جوانا فجلست متنهدة، وهي ترتو كنزة كرة قدم أخرى ممزقة.

كانت سيرينا بطريقة ما على حق. فهي عندما تتعب نفسها فترتدي ثوباً، وتسرّح شعرها وتتبرج قليلاً، كانت تعطي انطباعاً مختلفاً. والليلة هي ترتدي فستان سهرة أنيقاً، تبدو فيه فاتنة جميلة. ولأنه لم يرها هكذا من قبل اتسعت عيناه محدّقاً.

فتش عن كلمات مناسبة ليصف ما يراه من جمال.

ـ سيرينا.. هذا الفستان..

لكنها لم تكن تصغي إليه، بل كان تفكيرها في اتجاه مختلف. سألته فجأة: «أتجيد الرقص؟»

حرك بندكت قدميه: «كنت أحضر حفلات الرقص في الجامعة ولكنني لا أحبه كثيراً».

ـ بندكت.. هذا حفل راقص رسمي.. سيعزفون نوعاً مختلفاً من الموسيقى.. الفالس، الفوكس تروت، ومعزوفات أخرى.

بدا عليه القرف: «أتقصدين رقص الأيام الماضية؟».

كانا يعملان في مؤسسة مختبرات ستوراي، وهي أكبر مؤسسة في

منطقة نورفولك الريفية الصغيرة، حيث يعيشان.. يُقام الليلة الحفل السنوي للموظفين وبهذه المناسبة يدعى كل العاملين في المؤسسة، ومن المتوقع حضور ستوراي بنفسه. إنها المناسبة الوحيدة التي يتأكد فيها موظفوه أنهم سيرونه.. وهو يحضر كل سنة، ليفتتح الرقص مع أكبر العاملات سناً عنده، عاملة الشاي.. ماتي.

كانت ماتي مغرمة بالقول للقادمين الجدد إنه كان في المؤسسة منذ خمس عشر سنة لانس ستوراي ومساعدتان وهي فقط. كانت تنظف وتطبخ وجبة الظهر وتعد القهوة والشاي.. وكانت تتأكد، بحسب قولها، من ألا يبالغ لانس بالعمل.

ازدهرت المؤسسة كثيراً منذ تلك الأيام.. ففيها اليوم مطعم صغير للخدمة الذاتية تديره ماتي بمساعدة امرأة أخرى.. مع ذلك ترى نفسها لولب العمل كله.. وهي من الموظفين القلائل الذين ينادون السيد ستوراي باسمه الأول «لانس».

انضم بندكت إلى المؤسسة منذ سنتين بعد تخرجه مباشرة من الجامعة.. انكب بشغف على القيام ببحث عن سماد كيماوي جديد يؤمن بأنه سيكون ثورة في عالم الزراعة. ولكن من سوء الحظ أن التجارب التي قام بها كانت تحتوي دائماً بتركيبة قابلة للانفجار. أحدها كان النيترايت.. والمؤسف أن بندكت يغرق في عمله إلى درجة كبيرة بحيث ينسى الحذر لذا تسبب مرتين بانفجارات.. كان الأول بسيطاً اقتصر على تضرر بضع أنابيب للاختبار، وبضع زجاجات مكسورة.. أما الثاني الذي وقع منذ بضعة أسابيع فدمّر غرفة المختبر التي يعمل فيها وكسر عدة نوافذ.

غضب لانس ستوراي جداً.. ولوّح ببعض الفواتير لإصلاح المعدات والنوافذ، ولإعادة طلي الجدران والسقف المسودّة بفعل الانفجار..

قال لبندكت:

ـ لا يمكننا توظيف خبير بالمتفجرات. إن تكرر الأمر مرة أخرى فعليك التفتيش عن وظيفة جديدة.

أملت سيرينا، في هذه الفترة، أن يكون لانس ستوراي قد هدأ.. وهي مصممة على أن يقدم بندكت انطباعاً أفضل أمام رب العمل عند اللقاء به الليلة..

قالت بخشونة: «سأعلمك القالس.. إنها رقصة بسيطة، ويجب أن تتعلمها بسرعة.. ولكن يستحسن أن تراقصني أولاً.. وإياك أن تطالب امرأة بمشاركتك الرقص قبل أن تتأكد أن الفرقة تعزف القالس».

ـ ربما يجب ألا أرقص أبداً.

ـ بل يجب! شكراً لله لأنك لن تراقص لانس ستوراي.

بدا بندكت مرعوباً: «أراقصه! يا الله!»

وضعت يده على خصرها بحزم:

ـ لا تكن أرنباً مذعوراً. اسمع إن رقص القالس سهل جداً.

دخل والدها وغليونه في فمه فراح يراقبهما متسلياً عدة دقائق، أما بندكت فبدا متشنجاً يحاول اللحاق بخطواتها. ولكن تنورتها الطويلة كانت تتفخ حولها، فتجعله يتعثر عندئذ قرر ڤيكتور برنتيس إنقاذه.. رفع ساعته يدق عليها أمام عيني ابنته: «ألن تتأخرا؟»

تركت بندكت التعيس «أوه.. لا، أصبحت الساعة الثامنة.. كان علينا أن نكون هناك الآن.. لا تنتظرني أبي.. سأتأخر.. تذكر هذا».

دخلت جوانا برنتيس إلى الردهة في ما كان بندكت يقفل باب السيارة على تنورة سيرينا الواسعة ووقفت قرب زوجها، ووجهها يطفح بالأمل:

ـ ألا تبدو جميلة؟ لكن فستانها أسود، لماذا لم تختر الأبيض؟ لقد شاهدنا فستاناً جميلاً من الشوفين و..

التفت ڤيكتور إليها مبتسماً: «ليست سيرينا ممن ترتدي الشوفين».

* * *

شاهدت سيرينا لانس ستوراي في بضع مناسبات من مسافة بعيدة إلى حد ما، دخل فيها إلى المختبر حيث تعمل.. لم تلتحق بالجامعة، لأنها عرفت أن والديها اللذين تحملا نفقات تعليم خمسة صبيان ليختاروا مستقبلهم المهني لن يستطيعوا تحمل نفقات تعليمها. لم يلمح والدها قط إلى عدم قدرته، ولكن عيني سيرينا الخضراوين حادتان وشديدتا الملاحظة. كان منزلهم مريحاً ولكنه في الوقت نفسه مزر بشكل لا يطاق، وسيارة والدها قديمة، كبذلاته. كانت أمها تخيّط ثيابها وثياب سيرينا بنفسها.. وكانت تخيط الستائر وأغطية المقاعد على آلة الخياطة الكهربائية القديمة التي تملكها..

تعرف سيرينا خير معرفة أن والديها لم يحصلا قط على إجازة، وكانا يقضيان معظم عطلات الأسبوع الصيفية في العراء الريفي قرب منزلهما حيث يصطاد ڤيكتور السمك فيما تطرز جوانا شراشف للطاولات ومناديل، أو يخرجان معاً في القارب الصغير الذي تعلم كل أولاد الأسرة الإبحار فيه. وكانا يستمتعان بهذه الأيام ولكن سيرينا تعرف أن أمها تتوق إلى زيارة أماكن غريبة بعيدة في يوم ما: مصر أو اليونان، أو مراكش، أماكن لا تعرفها سوى من إعلانات السفر والكتب. لذلك عندما أنهت سيرينا دراستها قررت البحث عن عمل في المختبرات في بلدتها الصغيرة «بلاك ستون».

عملها حذر ودقيق فيه تكرار دائم فقد تقوم بإعادة التجربة نفسها مرات ومرات حتى تتأكد أن الفرضية الأساسية لا تحمل الشك.. لم تكن أسرتها متأكدة أن بإمكانها امتهان هذه المهنة، فهي مشهورة بقلة صبرها وسرعة غضبها ولهذا تكهنوا لهذه الوظيفة في مؤسسة ستوراي بقصر العمر، ولكنهم كانوا مخطئين فما إن تجاوزت فترة الملل في الأشهر الأولى حتى بدأت تستمتع بعملها وها قد مرت خمس سنوات وأصبحت المسؤولة عن عدة عاملات وذات أجر مرتفع.. ولكن كان من النادر رؤية الرجل الذي أسس المختبرات. إذ يعمل لانس ستوراي في لندن

وفي الخارج على مستوى واسع، يبيع المنتوجات التي تُصنّع وتُختبر في «نورفولك» ويدير شؤون المؤسسة يوماً بيوم. يقول الجميع إنه باحث ماهر فقد قامت شهرة المؤسسة على اختباراته الأولى وأبحاثه المتعلقة بتطوير التربة والزراعة، لقد بدأ العمل برأسمال شخصي قليل ولكن شركته اليوم ذائعة الصيت في سوق القطع المحلي والعالمي.

وصلت سيرينا برفقة بندكت إلى «بلاك سوان» أو البجعة السوداء، الذي كان يوماً نزلاً للمسافرين في العصور الوسطى وبات فندقاً للعربات المسافرة من نورويتش إلى لندن.. وجدا موقف السيارات مكتظاً، فاضطر بندكت إلى إيقاف السيارة بعيداً في الشارع العام، إذ لا مكان لها في الموقف. وعندما قفلا عائدين إلى مدخل «بلاك سوان» نفخ هواء الربيع شعر سيرينا على وجهها، ورفع تنورة فستانها قليلاً..

ذكرت بندكت مقطوعة الأنفاس: «حاول مقابلة لانس ستوراي، تحدث إليه، حاول دفعه إلى رؤية مدى أهمية عملك»..

وافق بخنوع: «حاضر سيرينا.. ولكن ما أسهل الكلام وأصعب الفعل. هذا.. إنه رجل صعب.. المراس..»

صمت فجأة لدى مرور أحد السقاة واصطدامه به. سرعان ما رفع يده إلى إحدى عينيه: «لا! لقد وقعت العدسة..»

نظرت سيرينا ما بين قدميه:

ـ لا تقف هكذا.. فتش عنها!

جثت على ركبتيها وراحت تنظر إلى الأرض الخشبية.. كانت الردهة فارغة لحسن الحظ ولكنها لم تر وميض العدسة في أي مكان وفي ما كانت تزحف مطأطئة الرأس سمعت وقع أقدام خلفها، فرفعت ذراعها تسد الطريق:

ـ أرجوك، لا تسر من هذه الناحية..

اصطدمت يدها بساق رجل، يرتدي سروالاً غالي الثمن.. في تلك اللحظة صاح بندكت بانتصار: «وجدتها».

ثم هبَّ واقفاً فصدمت ركبته ظهر سيرينا التي اندفعت إلى الأمام في الوقت الذي خطا فيه الرجل إلى الأمام أيضاً.. فتعثر فوقها، ووقعا معاً إلى الأرض.. نظرت سيرينا إلى عينيه الرماديتين كقطعتي ثلج عن بعد سنتمرات ثم تسمّرت في مكانها، فقد غاص قلبها لدى تعرفها إلى هوية الضحية، فهي لم تخطط لمثل هذا اللقاء مع لانس ستوراي.

سألها بندكت متعجباً:

ـ ماذا تفعلين على الأرض سيرينا؟

رفعها عن الأرض بدون أن ينظر إلى الرجل الآخر. حتى التقطت أنفاسها، واستعادت رباطة جأشها، كان قد وقف، ولكنه كان أشد ملاحظة من بندكت إذ قال متجهماً:

ـ كان يجب أن أعرف.. مرحباً رامسي.. أرجو ألا يكون معك ما هو متفجر في جيوبك.

كان بندكت يمسح تنورة سيرينا معتذراً.. ولكنه رفع رأسه مشدوهاً فاغراً فاه برعب:

ـ آه! سيدي.. أنا.. يا إلهي.. عفواً. لم أعرف أنك أنت...

فكرت سيرينا أن الرجل الآخر عن قرب يختلف عما هو عن بعد ولكن هل ذلك تأثير البزة السوداء الرائعة؟ صحيح أنه لا يملك بنية بندكت الرياضية ولكن جسده الرشيق رائع بدون الحاجة إلى الأكتاف الضخمة، والعضلات الواضحة.. فقوة بندكت كامنة في جسمه أما هو فوديع كالحمل، طبعه سلس بحيث لا يجد المرء صعوبة في قيادته. بعد نظرة سريعة إلى لانس ستوراي وجدت أن من العسير قيادة لانس ستوراي.. فوجهه قاسٍ معدوم منه اللين.

التوى فم لانس ستوراي بسخرية غاضبة:

ـ أجدني محظوظاً لأنني نجوت بدون عظام محطمة.. استمتع بالسهرة بدون أن تحطم المكان.. أتسمح؟

نظر نظرة سريعة إلى سيرينا، ثم ارتد عنهما ولكنه التفت وقد

ضاقت عيناه:

ـ هل شاهدتك في مكان ما من قبل؟

حاولت الرد بلطف: «أعمل عندك».

كانت كلماتها حادة لأن نظرته إليها لم تعجبها فقد طافت فيها عيناه من شعرها الأحمر الأشعث بفعل الريح حتى تنورتها السوداء الطويلة.

ارتفع حاجباه السوداوان الرائعان.. ثم هز رأسه وابتعد تلحق به جماعته.. حدقت إليهم متسائلة عمن يرافقه هذه المرة. يصحب عادة فتاة يراقصها بعد أن يتم واجبات الرقص مع الموظفات الكبيرات سناً. لم يراقص قط الفتيات الصغيرات من موظفاته. وهذا ما أحرق قلوبهن ولكنهن في كل سنة يعدن إلى الحفلة وملؤهن أمل أن يكسر القاعدة.. لم يكن لانس ستوراي متزوجاً، ولهذا أصبح الهدف رقم واحد عند بعض الفتيات.. يبدو في الخامسة والثلاثين ويرأيها إن لم يتزوج قريباً فقد لا يتزوج أبداً ولكنه ليس بحاجة إلى الزواج نظراً للفتيات اللاتي يرافقنه، فسيحرمه الزواج من صحبتهن.

قالت لبندكت: «معه فتاتان الليلة.. وأتساءل مع أيهما سيرقص».

قال بندكت وهو ينظر بعين واحدة:

ـ النحيلة التي ترتدي الأزرق هي سكرتيرته.. سيرينا، يجب أن أذهب إلى الحمام لأعيد العدسة.. أراك بعد خمس دقائق.

دخلت سيرينا أيضاً إلى غرفة السيدات لتمشط شعرها، وهناك أصغت إلى الأقاويل المتداولة بين ثلاث فتيات أخريات، تعرف إحداهن هوية سكرتيرة لانس وهوية الفتاة الأخرى.

قالت كارلا وهي تعيد خصلة شعر أسود إلى الوراء:

ـ إنها كلاريسا هوارد.. والدها ذلك العجوز الأشيب إنه مصرفي.

سألتها الأخرى، التي تعمل مع سيرينا:

ـ وكيف عرفت؟

ـ أوه جولي، ألا تقرئين الصحف؟ وايست هوارد هو أحد مالكي

الأسهم الكبار في مؤسستنا..

وضعت كارلا أحمر الشفاه، ثم نظرت إلى فستانها وقالت:

ـ لا أرى أن الأبيض يناسبني إذ يبدو شاحباً جداً.

سألت جولي: «وهل يتواعد لانس مع كلاريسا هذه؟»

ـ ذلك مذكور في الصحف منذ أيام..

خرجت سيرينا تاركة الفتيات لأقاويلهن. وجدت بندكت ينظر إلى قاعة الرقص منتظراً قدومها.. بدا مرتبكاً كولد يخشى أن تكون أمه قد ضيعته ولكنه انتعش عندما ظهرت.

ـ أوه.. ها أنت.. هل هذه رقصة فالس.

ـ إنها رقصة سريعة.. هيا فلنتخذ لنا طاولة قبل أن تنشغل كلها.

أمسكت ذراعه تدفعه إلى الباب.. وجدا طاولة في زاوية بعيدة لأن معظم الطاولات الأخرى مشغولة. كان للانس ستوراي ومن يرافقه أكبر طاولة، وُضعت في منتصف أحد الجدران وتُرك حولها مساحة لئلا يحجب المدعوون عنهم رؤية حلبة الرقص أو الفرقة الموسيقية.

بدت الموظفات في أبهى حلة ولكن تألقهن لم يكن يقارن بتألق الفتاة الشقراء، الزرقاء العينين، الأنيقة الملبس. كانت أذناها تلمعان ببريق الألماس كلما أدارت رأسها، وكان والدها يستند إلى الخلف يدخن السيكار، ويده الأخرى تعبث بكوب شراب.

ـ مرحباً.. أيمكننا الجلوس معكما؟

ابتسم بندكت للفتاتين اللتين تعملان في قسمهما:

ـ بالطبع جولي.. مرحباً ليزا. تبدين جميلة وأنت أيضاً جولي.

استراحت الفرقة من العزف قليلاً ثم بدأت مجدداً.. فنظر بندكت بشوق إلى سيرينا: «هل هذه..»

ـ أجل.. تعال.

قالت للفتاتين: «أراكما فيما بعد».

أمسكت يده وهي تحس بعيونهما تلحقان بها حسداً.. خاصة ليزا

التي لم تتمكن قطّ من إخفاء إعجابها ببندكت الذي كان خجولاً إلى حد لم يجعله يستغل هذا الإعجاب.

أخذ بندكت يتمتم محدقاً إلى قدميه:

ـ واحد، اثنان، ثلاثة.. واحد، اثنان، ثلاثة..

لمحت سيرينا من فوق كتفه نظرات لانس ستوراي المتسائلة، فردت عليها بابتسامة مهذبة بالية.. ثم دفعت بندكت للتحرك حتى ابتعدا عن لانس ستوراي وشقرائه.

همست في أذن بندكت: «لا تعد خطواتك بصوت مرتفع هكذا، ولا تنظر إلى قدميك!».

نظر إليها ببأس: «لا تكلميني وأنا أركز سيري!»

ـ حاول أن تديرني دائماً وإياك والاستمرار في التحرك بخط مستقيم.

عندما أدارها بعنف رأت لانس ينحي شريكة رقصه بعيداً عن مرفق بندكت المرتفع. فقالت: «أظن أن من الأفضل لنا أن نعود للجلوس».

تصورت أن نصف الراقصين قد اجتاحته تقنية بندكت في الرقص.. أنزل يديه متنفساً الصعداء وقفل راجعاً إلى طاولتهما تاركاً سيرينا تنظر إلى جسم لانس ستوراي الرشيق وهو يمسك بشريكته المسترخية عليه. بدت الشقراء حالمة، كما يجب أن تكون..

فكرت سيرينا بخبث: كم أود رؤيتها ترقص مع بندكت.. تعرف سيرينا أنها على الأرجح لن تتلقى دعوات كثيرة من الرجال لأنها جاءت برفقة بندكت.. فما من أحد منهم يرغب أن تُداس على قدمه.. كانت كتفاه العريضتان خطيرتين، تبعدان عنها منذ سنتين بضعة رجال يودون التقدم إلى سيرينا. لقد أخذ بندكت على نفسه حق الوصاية عليها بسبب صداقته الطويلة لأخوتها، وهي تعلقت به إلى حد جعلها لا تلمح له بأنها لا ترغب في رؤيته كثيراً حتى يتسنى لها رؤية غيره ولأنه لم يكن في فضاء حياتها شخص مميز تهتم به تجاهلت التلميح.

رأت سيرينا لانس يُجلس الشقراء في مقعدها ثم يتجه إلى المقصف.. فقالت: «بندكت أحضر لنا شراباً إن سمحت».

قال ببلاهة: «ثمة ساق قادم إلينا».

ركلته من تحت الطاولة، وعيناها تغمزان باتجاه لانس:

ـ سيتأخر في الوصول.. توجّه إلى المقصف عزيزي!

وقف: «أجل.. طبعاً.. ماذا ترغبين يا فتيات؟»

غاب نصف ساعة وعندما عاد، وجدت الطاولة مليئة بالأكواب الفارغة، فلقد وصل الساقي قبله بوقت طويل ولكنهن رحبن بالصينية التي كان يحملها.

قالت له بعد لحظات: «أترقص؟»

أرادت سماع ما قاله له لانس ستوراي..

أطاعها بندكت بتجهم ولكنها لم تعترض هذه المرة عندما راح يعد خطواته.

ـ هل كلمته؟

ـ واحد اثنان ثلاثة.. واحد اثنان، ثلاثة.. ليس تماماً..

ـ لكنك كنت تقف قربه.. رأيتك!

ـ واحد اثنان ثلاثة.. أجل ولكن كان الجميع يتكلمون.. واحد اثنان..

غرزت أصابعها في كتفه: «بندكت! ألم تتمكن من قول شيء له؟»

شد بندكت على خصرها، ليرفع لها التنورة قليلاً:

ـ طبعاً.. قلت له مرحباً.. أتستمتع بالرقص؟ وقال لي: أجل.. ثم ألقى نكتة حمقاء، وضحك الجميع.

ـ نكتة؟ عمّ كانت؟

احمر وجه بندكت: «قال إنه كان يتساءل كثيراً عما إذا كنت مؤذياً في الخارج كحالي في المختبر.. وبعدما شاهد رقصي عرف الحقيقة».

ـ يا له من وقح! الرقص سخيف على أي حال..

داس قدمها: «آسف.. أين كنت؟ انظري.. لقد أنسيتني عد خطواتي».

عادا إلى طاولتهما.. ولكن ما إن استقرت سيرينا في مقعدها حتى وصل لانس ستوراي إلى الطاولة مبتسماً.

ـ مساء الخير.. هل تستمتعون جميعاً بالسهرة؟

رد الجميع بصوت حاد من الإثارة:

ـ أجل.. شكراً لك.

راحت عيناه الرماديتان تتأملان الفتيات اللواتي أشرقن بالأمل. وبدا كأنه «باشا» يتفحص «حريمه» وعندما استقرت نظرته الباردة على سيرينا قال:

ـ أتهتمين بمراقصتي.. آنسة..؟

ردت: «برنتيس».

انقسم تفكيرها بين الرفض بابتسامة باردة، أو القبول لتفعل لبندكت ما لم يفعله لنفسه.. كان ترددها قصيراً إذ وقفت:

ـ شكراً لك.

أحست وهما يسيران نحو حلبة الرقص بالعيون مسمّرة عليهما دهشة، وحسداً وغضباً، وهي مشاعر تنبع من زميلاتها في العمل.. كسر لانس ستوراي أخيراً تقليده، لقد طلب إحدى الشابات إلى الرقص. ولكن الحمد لله لأن أحداً لم يرهما في الردهة منذ قليل، وهما مرتميان أرضاً.

كانت مراقصته تجربة مختلفة كل الاختلاف عن الرقص مع بندكت. فقد أمسكت يده خصرها بثبات وتحركت ساقاه برشاقة. كانت قادرة على نسيان لذة التحرك بدون القلق على المصير الذي ستصل إليه، فلا وجوب مع لانس إلى أن تقوم هي بالمبادرة بالحركة.

سألها وهما يدوران في الحلبة: «إذن، أنت تعملين في المختبر؟».

أدارت رأسها بلهفة:

ـ أجل.. مع بندكت رامسي.. إنه كيمائي بارع.. وأنا معجبة بمشروعه الجديد.. بالإمكان..

قاطعها متفرساً: «هل أنت خطيبته؟»

اتسعت عيناها: «خطيبته! لا.. بالطبع لا.. ولكن عملي معه يومياً، جعلني أدرك شدة ذكائه و..»

ـ لا داعي للقيام بدعاية لرامسي أمامي. ما كان ليبقى في المؤسسة لولا إبداعه وذكاؤه.

دار فجأة على عقبيه فطارت معه، تتمسك بكتفه.. قالت لا إرادياً: «أنت راقص بارع».

نظر إليها ساخراً مبتسماً: «شكراً لك، وأنت بارعة أيضاً.. ولكن، ألا يمكننا نسيان موضوع رامسي؟ أنا هنا بغية الاستمتاع وفي الواقع لا أجد الحديث عنه ممتعاً.. هل لون شعرك طبيعي؟»

ردت بسخط وهي غير واثقة من إعجابها بنظرته إليها: «أجل.. طبيعي».

تمتم: «غير معقول!.. لا أستطيع الاستمرار في مناداتك آنسة برنتيس.. فما اسمك؟»

ـ سيرينا.

ـ سيرينا؟.. اسم غير مناسب لفتاة لها هذا الشعر الأصهب. هل يختصره الناس؟

ـ ينادني بندكت سيري.

فتح عيناه على وسعهما فأجفلت أمام تحديق هاتين العينين الرماديتين:

ـ رامسي مرة أخرى! يبدو أنه الموضوع الرئيسي لكل أحاديثك.. فهل هو متفجر معك كما هو متفجر في المختبر؟

تورد وجهها غضباً منه ومن نفسها لأنها غضبت، فراقب احمرارها بعينين باردتين كالثلج.

ـ إنه شاب قوي العضلات.. ولكنني ما ظننته «دون جوان». كم عمرك؟

أربكها تغيير الموضوع بشكل فجائي فتمتمت:

ـ أنا.. في الثالثة والعشرين.. لماذا؟

ـ مجرد فضول.

توقفت الموسيقى، فتركها ليعيدها إلى طاولتها مبتسماً مجدداً لوجوه صديقاتها المبتسمة.

سألتها جولي: «كيف كان الرقص معه؟»

وسألت ليزا: «هل هو راقص بارع؟ آه! إنه يرسل الرعدة في عروقي!»

ردت سيرينا بحدة: «وهذا ما يفعله دراكولا».

سحبت ليزا أنفاسها: «عندما نظر إليّ بعينيه الباردتين المثيرتين، كدت أذوب».

أدارت عينيها إلى فوق وتحت، ثم تنهدت، قبل أن تتراجع بعنف إلى ظهر مقعدها، فضحك الجميع.. ثم وضع أحد شبان قسم الصيانة يده على جبينها.

ـ يا للفتاة المسكينة! أرجو أن تبقى حية.

ثم انتزع يده عنها بسرعة:

ـ أووه.. تكاد تحترق! أنت بحاجة إلى كوب شراب كبير بارد.. أين الساقي؟

نظرت سيرينا إلى حيث يجلس لانس ستوراي الذي كان يرفع كوبه إلى فمه.. كانت نظرته تطوف من فوق حافة كأسه، إلى الراقصين ثم لامست وجهها بسرعة، قبل أن تعود إلى الابتعاد. كانت الشقراء تراقص أحد الكيميائيين الكبار في الشركة.. أما والدها فكان نائماً، عيناه مغمضتان، ويداه مضمومتان فوق معدته.. رأت سكرتيرة لانس تتوجه إلى غرفة السيدات.. فهبت سيرينا بتهور تريد اللحاق بها.. قد تؤثر

السكرتيرة أحياناً في رئيسها وذلك بأن ترمي الكلمة المناسبة في أذنه في الوقت المناسب، ولن يضر بندكت أبداً أن تكون السكرتيرة إلى جانبه.. فقد تهدىء نفس السيد ستوراي نحوه، شرط ألا يوقع نفسه في المزيد من المشاكل.

كانت الفتاة السمراء النحيلة تنظر إلى نفسها في المرآة عندما وصلت سيرينا. عندما تلاقت عيونهما قالت سيرينا مبتسمة:

ـ مرحباً.

نظرت إليها الفتاة الأخرى نظرة حادة، وهزت رأسها.. ثم راحت تضع أحمر الشفاه. أما سيرينا فتظاهرت بأنها تمشط شعرها ولكنها ما لبثت أن قالت بحبور متعمد:

ـ ألم نلتق سابقاً؟ أنا سيرينا برنتيس، أعمل..

قاطعتها الفتاة: «أعرف».

أنبأ تصرفها بأنها تعرف كل شيء عنها.. ولكن سيرينا رفضت التراجع.

ـ ما اسمك؟

ـ كريستي ريفز.

ـ يعجبني فستانك.. لونه جميل.. ماذا يقال له؟ الزبرجد؟

ـ بل الأزرق.. هل لحقت بي إلى هنا لتتحدثي إليّ؟

ـ وهل هذا واضح إلى هذا الحد؟

ـ لا أدري.. ما رأيك.

ـ هذا ما كنت أخشاه.. أترين.. لقد حاولت جهدي التكلم مع السيد ستوراي.. ولكنه لم يشجعني..

ـ لم يشجعك؟

كانت عيناها كزرين أسودين صغيرين. وفي لهجتها رنة سخرية، ولكن سيرينا لا تستسلم بسهولة فأردفت:

ـ أعتقد أنك سمعت بيندكت رامسي! إنه..

أضافت كريستي بلهجة مختلفة:

- هو لا ينفك عن تفجير أنابيب الاختبار. سمعت به.. ومن لم يسمع؟ كاد يسمع الانفجار الأخير في لندن، وكاد يفلس لانس.

تنهدت سيرينا «بندكت عادة شارد الذهن.. وهذه حاله كلما أغرق في العمل، فهو يغرق في ما يفعل إلى درجة نسيان أي شيء آخر. ولكن ما يقوم به هام جداً وخطير.. هو لا يعرف ما قد يحصل عليه من نتيجة، ولكنني واثقة من بلوغه هدفه أخيراً. ويجب أن يعرف السيد ستوراي كيف تحدث مثل هذه الأمور.. فهو كيميائي أيضاً، ولا شك أنه يدرك مدى ذكاء بندكت؟ ستكون خسارة للشركة إن فقدت بندكت.. ولا شك أن شركة أخرى ستنتزعه بسرعة بعدما يترك الشركة».

نظرت إليها الفتاة مبتسمة: «وأنت لا تريدين أن يترك الشركة؟ فهمت.. عندما باشرت الكلام كان انطباعي مختلفاً. ظننتك مهتمة بلانس».

نظرت إليها سيرينا دهشة:

- السيد ستوراي؟ لكنني لا أعرفه.. التقيته الليلة للمرة الأولى، هل تجديني مهتمة به حقاً؟

ضحكت كريستي ثم توجهت إلى الباب:

- هذا ما ظننته.. ولن تكوني أول فتاة تحاول الوصول إليه عن طريقي..

سارت نحو قاعة الرقص فلحقت بها سيرينا ثم قالت مبتسمة ابتسامة ساخرة:

- اسمعي.. أنت تضيعين وقتك.. فليس لي أقل تأثير في لانس. إنه يتخذ قراراته بنفسه، ومتى اقتنع بقرار ما لا يتراجع أبداً. وإن كنت قلقة على صديقك الشاب فانصحيه بأخذ الحيطة والحذر في المستقبل.. فليس ما يقلق لانس نفقات تجاربه بل إمكانية أن يصاب أحدهم بأذى فادح يوماً.. وإن حدث ذلك يرتعب بعض المساهمين.

ردت سيرينا بغضب: «إن أعذار السيد ستوراي مبنية دائماً على المال.. يكره بندكت أن يؤذي نملة ولهذا لا يسمح لأحد بالاقتراب من مختبره أثناء العمل. إن الشخص الوحيد الذي يخاطر به هو نفسه».

كادتا تصلان إلى طاولة ستوراي، فتوقفت عن الكلام وقد أدركت أن لانس ستوراي قد يسمعها.. فقد كان يراقبهما وكأنه يسمع ما تقول، إذ بدت على ملامحه تسلية ما.

سأل بصوت مرتفع:

- هل من متاعب كريستي؟

- لا، لا متاعب.. وداعاً آنسة برنتيس.

وتقدمت لتجلس، أما سيرينا فابتعدت وتنورتها الطويلة السوداء تخشخش حول قدميها، ولكنها سمعت قهقهات خلفها. أيضحكون عليها؟ تشعر بأنهم يضحكون عليها بل تحس بالعيون مركزة على ظهرها.. ارتكبت غلطة عندما تحدثت مع السكرتيرة.. ليتها لم تتصرف بتهور فلا شك أن كريستي ريفز ستكرر كل كلمة قالتها أمام لانس ستوراي.. ألهذا يضحكون؟

سألها بندكت: «متى نستطيع العودة إلى البيت؟»

كان الجميع يرقص، أما بندكت فكان يبني كوخاً من عيدان الثقاب التي يجدها في المنفضة..

قالت تعده: «قريباً...»

بدا بندكت في قاعة الرقص غريباً كثور في حانوت خزف.

بعد خمسة عشر يوماً على الحفلة وفي ما كانت سيرينا تعمل على تجارب زراعية في المختبر، سمعت صوتاً أصبح مألوفاً للجميع، صوتاً يصم الآذان أعقبه تحطم الزجاج. وقعت عدة أواني عن رف المختبر وامتلأت الحديقة في الخارج بالزجاج المتطاير الذي قطع رؤوس الأزهار الربيعية.. وقفت سيرينا واقفة جامدة وعيناها مغمضتان.

- أوه.. لا!

ما هي إلا لحظة حتى شاهدت الناس يهرعون نحو المختبر الذي يعمل فيه بندكت وحده، وكان قد جرّ نفسه إلى الخارج وشعر رأسه يقف منتصباً. جدار المختبر كله مهدم، وجهه ومعطفه الأبيض مبقعان بالدم.

هرعت سيرينا إليه: «هل أنت مصاب؟»

هز رأسه، فأمسكت سيرينا بتلابيبه وصرخت:

ـ أيها الأحمق، أيها المجنون الخطير.. كدت تقتل نفسك!

صاح بندكت: «لقد رأيت ما فعلت».

ولكنه لم يكن يتحدث عن المختبر المحطم أو عن الحديقة المتناثر عليها الزجاج.

ـ لقد أخطأت بالتركيبة.. وهنا أخطىء دائماً.. الأمر بسيط فعلاً.. ليس الخطأ بالعناصر الأساسية، بل بالتركيبة.. في المرة القادمة سوف..

قاطعته غاضبة: «المرة القادمة؟ المرة القادمة؟ بندكت.. ألا تعرف يا ذا الرأس السميك أن لانس ستوراي عندما يعرف بهذا ستفقد فرصة المرة القادمة».

بعد ساعتين تحققت نبوءتها إذ تحدث لانس ستوراي بحدة مع بندكت هاتفياً.

ـ أنت مطرود.. أخرج من هنا اليوم ولا تلمس أبداً شيئاً أملكه.

ركب بندكت سيارة سيرينا في ذلك المساء، شاحب الوجه مصدوماً. لم يتفوه بكلمة طوال الطريق إلى منزله ولكنها عندما أوقفت السيارة نظر إليها بعينين تعستين وقال:

ـ لا أصدق أنه يعني ما قال.. ماذا سيجري لأبحاثي؟ لا أستطيع حملها معي لأنها ملكه ففي شركته أجريتها.. ولكنها لي.. كلها لي.. وهذا غير عادل.. فإن أعطى المشروع لشخص آخر استفاد منه كثيراً.. فهل هذا عدل؟

ـ كلمه.. اذهب إلى لندن وقابله.. اجعله يصغي إليك.. بالطبع

هذا ليس عدلاً.. لا يمكنك تركه ينجو بما فعل.. إن كان سيجبرك على ترك العمل فليسمح لك على الأقل بأخذ أبحاثك معك.

رد بعنف: «لن يفعل.. ولن يقابلني كذلك.. كما أنني لن أستطيع الكلام معه. إنه يخيفني.. يرتبط لساني عندما أراه، وترفض الكلمات أن تخرج».

نظرت إليه تعض شفتها:

ـ ألا يمكنك مراسلته إذن؟ صُغ ما تريد على الورق.

ـ سيرينا.. ألا يمكنك..

ـ أن أكتب رسالة نيابة عنك؟ أعتقد أنني أستطيع شرط أن تملي عليّ ما تريد قوله.

قال مقاطعاً وعلى وجهه نظرة صبيانية: «لا، اذهبي إلى لندن لمقابلته!».

استوت سيرينا في جلستها، وفغرت فاها: «أنت تمزح».

ـ لا.. بل أعني ما أقول.. أنت بارعة في التعامل مع الناس.. ولا ريب في أنه سيصغي إليك.

ـ أنت مجنون! حاولت مكالمته عنك، ورفض بإصرار.. فلماذا يصغي إليّ هذه المرة؟

قال بارتباك: «أنت فتاة، إن أمثال ستوراي يصغون إلى الفتيات. لا شك في أنه سيلكمني على أنفي حين يقع بصره عليّ. ولكنه لن يفعل بك ذلك».

ـ حسناً.. هذا أمر جيد.

ـ أرجوك اذهبي سيرينا!

ـ لا أستطيع.. ألا تفهم؟

ـ أنت أملي الوحيد.

تفطر قلبها بسبب نظرة اليأس التي ألقاها عليها.

ـ بندكت.. لا تقل هذا!

- قولي له إنني لن أقوم بأية تجربة بعد الآن إلا إذا كنت متأكداً من التركيبة الصحيحة وانه لن يحدث أي انفجار بعد الآن، وإن حدث انفجار ما فليحسمه من راتبي. ليس لدي حل آخر. هل هذا ممكن؟ يمكنك إقناعه سيرينا.. أعرف أنك قادرة.

- اخرج من السيارة.. بندكت!

- عديني أن تذهبي.

- تراقبنا أمك عبر ستائر غرفة النوم، والله أعلم بما تظنه بنا.

لم يدفعه حتى قولها هذا إلى الترجل من السيارة بل راح يربت على كتفها.

- سيرينا.. أرجوك!

أغمضت عينيها لتبعد صورته عنها، ثم تنهدت. لم يصغ إليها لانس ستوراي يوم الحفلة الراقصة.. فلماذا يصغي إليها الآن؟ أحست بتوتر كريه لأنها تذكرت سخريته منها.. من يظن نفسه على أي حال؟ لقد تجاهلها عندما مرَّ بها وكأنها ذبابة تدور حول رأسه. واحمرّ وجهها، وفتحت عينيها.

راقبته بعينين مويختين:

- لا شك أنني أكثر منك جنوناً.

ابتسم مسروراً:

- ستذهبين؟ آه! شكراً لك سيرينا.. أعرف أنك ستجبرينه على الإصغاء إليك.

- معك حق! في هذه المرة سأجبره على الإصغاء حتى لو اضطررت إلى إيقاعه أرضاً، والجلوس فوقه.

* * *

٢ - كيف أتخلص منك؟

قررت سيرينا ألا تذكر أمام ذويها سبب ذهابها إلى لندن لقضاء نهاية الأسبوع. فشقيقها برنار سيتزوج بعد أسابيع وهي تريد شراء ملابس جديدة لهذه المناسبة.. فكان أن قالت لأمها إنها ذاهبة إلى المدينة بغية التسوق ولكن عندما فكرت أمها في مرافقتها شعرت بالحرج.

شدت الأم خصلة رمادية تلويها مفكرة:

- أحتاج إلى أحذية، وقبعة، وهناك خيار أوسع في لندن. أظنني أنوي مرافقتك، بمكننا الإقامة مع ديوغ وسوزي. إنهما يدعواني دائماً غير أنني لا أجد الوقت للسفر.

لمعت عينا سيرينا وفتحت فمها لتعترف بالحقيقة ولكن من حسن حظها أن السيدة برنتيس تنهدت: نسيت! لا أستطيع مرافقتك إذ سيقام سوق الأحد هذا الأسبوع فلماذا لا تؤجلين رحلتك حتى الأسبوع القادم؟

ادّعت سيرينا أنها تريد الذهاب لتشاهد العرض الأخير لمسرحية أرادت مشاهدتها منذ أشهر، وتقبلت ادعاءها باستياء.. وهكذا، كانت سيرينا يوم الجمعة صباحاً سعيدة لدى صعودها إلى القطار وحدها بدون أن يعرف أحد ما تنوي فعله.

كان لمؤسسة ستوراي طابق كامل في مجمع للمكاتب في منطقة «ماي فير» على مسافة غير بعيدة من «بوند ستريت».. وجدت سيرينا المكان بسهولة ذلك الصباح. سارت بين الجموع الخارجة من محطة

www.liromancia.com

المترو تحت الأرض، وهي تحس برغبة في التراجع عن الفكرة كلها.. أملت أن تضيع أو ألا يكون هناك وجود لشارع «تيسم» ولكنها وجدت نفسها داخل المبنى وما هي إلا لحظات من ذلك حتى كانت خارج باب زجاجي مزدوج.. يحمل اسم الشركة بأحرف ذهبية: «مؤسسة مختبرات ستوراي» وقربه عدة أكواز ذرة ذهبية.. تعرف سيرينا أن أول أبحاث أجراها لانس ستوراي كانت عن تنمية الذرة.

نظرت عبر الزجاج إلى البهو الداخلي الواسع، كانت الفتاة المرتدية الأسود تطبع على الآلة الكاتبة. رأت سيرينا سكرتيرة لانس ستوراي تخرج لتضع كومة من المغلفات على طاولة الاستعلامات، وعندما قفلت راجعة لمحت سيرينا تتسكع في الخارج، فتوقفت والتوى فمها.. فتحت سيرينا الباب واتجهت نحوها: «مرحباً».

- أعرف سبب وجودك هنا.. ولكن ادّخري أنفاسك. اقبلي نصيحتي وعودي إلى صديقك الشاب وقولي له أن يعمل في ما هو أقل خطراً.

بدت كريستي ريڤز أقدر وأهدأ هنا في محيطها الخاص. كانت بلوزتها البيضاء وتنورتها الرمادية المتكسرة، رغم بساطتهما غاليتي الثمن وكانتا تناسبانها أكثر من الفستان الذي ارتدته في الحفلة.

توسلت سيرينا إليها: «ألا يمكنني مقابلة السيد ستوراي، ولو للحظات؟»

واجهتها بنظرة ساخرة:

- لن يصغي إليك.. كان يتحدث منذ قليل مع شركة التأمين.. التي ستدفع ثمن الأضرار هذه المرة ولكن قبل تجديد عقد التأمين نهاية هذا العام يطالبون بخروج صديقك الشاب.. وبناء على هذا لن يعود إلى توظيفه حتى وإن سامحه.

جلست سيرينا على كرسي قرب الاستعلامات:

- سأنتظر على أي حال.. فأنا لا أريد من وقته إلا خمس دقائق.

وما هذا بمطلب كبير، أليس كذلك؟

وقفت كريستي تنظر إليها، ثم ارتدت عائدة إلى المكتب الداخلي.. كانت موظفة الاستقبال تصغي، فاغرة فاها، ثم ابتسمت بفضول لسيرينا.

- أتودين بعض القهوة؟ أردت إعدادها منذ قليل.

- شكراً لك.. سأحب هذا كثيراً.. أريدها مرّة بدون سكر.

اختفت الفتاة ثم عادت حاملة كوبين ورقيين قدمت أحدهما إلى سيرينا وجلست خلف طاولتها، فقالت سيرينا:

- هذا سريع.

- لدينا آلة لإعداد القهوة.

وضعت موظفة الاستقبال مرفقها على الطاولة ومالت نحوها تسأل:

- أتعملين في نورفولك؟ كنت أنت والآنسة ريڤز تتكلمان عن آخر انفجار وقع هناك.. أليس كذلك؟ لقد غضب السيد ستوراي جداً، وكاد يضرب السقف برأسه.. حقاً.

ابتسمت سيرينا ابتسامة ضعيفة، ثم رشفت القهوة. انفتح الباب خلف الموظفة، وخرجت كريستي ثانية، عندئذٍ عادت الموظفة إلى الطباعة بسرعة..

قالت كريستي بإشفاق ظاهر:

- أنا آسفة.. لن يقابلك.. قلت لك هذا.

استوت سيرينا بثبات في كرسيها، وعلى وجهها ملامح العناد: «سأنتظر».

قالت كريستي بنفاد صبر:

- ستنتظرين إلى الأبد إذن.. إنه في اجتماع سيستغرق فترة الصباح كله وبعده سيخرج للغداء.. كوني عاقلة وعودي إلى بيتك.

وقفلت عائدة إلى الباب الداخلي أما سيرينا فظلت حيث هي تحت أنظار موظفة الاستقبال.. لقد وعدت بندكت بإنقاذ وظيفته إن

استطاعت، ولن تستسلم بسهولة.

مرت ساعتان وهي ما تزال تجلس هناك. كانت وحدها تشعر بالملل، فقد خرجت فتاة الاستقبال لتناول الغداء، بعدما سلمت مركز الهاتف إلى كريستي التي كانت تحرج كلما رن جرس الهاتف، ولكنها تعمدت تجاهل سيرينا.

في الواحدة والربع، خرج بعض الرجال من المكتب الداخلي وهم يتحدثون بحذر.. نظروا إلى سيرينا وابتسموا لها فردت لهم الابتسام متسائلة متى سيخرج لانس ستوراي.. بعد خمس دقائق، انفتح الباب مجدداً فانتفضت أمام الرجل الرشيق، الأسود البذلة المتقدم نحوها.

توقف أمامها ينظر إليها بدون أن يبتسم:

- ألم تقل لك كريستي إنني لن أقابلك؟

ارتفع ذقنها تحدياً: «يجب أن أكلمك ولن أخرج من هنا حتى أكلمك».

- تضيعين وقتك.. لا شيء على وجه الأرض يجعلني أغيّر رأيي بشأن ذلك الرجل المجنون.. إنه خطر.

- أعرف أنك غاضب..

- آه! تعرفين هذا..؟ أرى أنك مجنونة مثل صديقك.

جعلتها سخريته تحمرّ غضباً ولكنها ظلت متماسكة:

- يحق لك أن تغضب.

ضحك بفظاظة «شكراً، هذا يُشعرني بأنني أفضل حالاً».

نظر إلى ساعته:

- اسمعي آنسة برنتيس، لن يوصلنا هذا النقاش إلى أي شيء. لقد أنذرت رامسي منذ أسابيع، ولكن من الواضح أنه لم يفهم.. الرجل مجنون خطر. كفاني ما نالني منه.. يؤسفني أن تقطعي هذه المسافة من أجل لا شيء.. ولكن لديّ أشياء أخرى تشغلني. لقد تأخرت على موعدي وأخشى ألا أتمكن من إعطائك المزيد من الوقت.

هبت واقفة بسرعة ولكنها في عجلتها أوقعت حقيبتها وبعدما التقطتها كانت قد تأخرت لأن لانس ستوراي خرج في أثناء ذلك إلى الخارج وما إن استجمعت نفسها لتلحق به حتى كان قد اختفى ولم تسمع سوى أزيز المصعد الذي كان يهبط.. كادت للحظات تلحق به على السلم، ولكن أمامها ست طبقات. عادت إلى البهو فوجدت كريستي ريفز تراقبها:

- لن أقول لك إنني قلت لك هذا.. استسلمي وعودي.. وإذا كان صديقك ذكياً كما تظنينه، فسيجد وظيفة أخرى.. وربما عمل عندئذ في شيء لا ينفجر في وجهه.

ترددت سيرينا لحظات ثم تذكرت وجه بندكت اليائس فقويت عزيمتها، لتقول بإصرار: «سأبقى هنا».

كشرت كريستي وجهها بنفاد صبر.

عادت موظفة الاستقبال مسرعة من الغداء في تلك اللحظة.

- آسفة هل تأخرت؟

نظرت كريستي إلى ساعتها: «أجل».

جلست الفتاة صامتة أما كريستي فالتفتت إلى سيرينا.

- أنا ذاهبة للغداء الآن.. جائعة؟

ردت بتحدٍ: «لن أبرح مكاني حتى أقابل السيد ستوراي».

تلقت ابتسامة جافة: «لن يعود قبل ساعات، فتدبري أمرك».

دخلت إلى المكتب، لتخرج بعد دقائق مرتدية سترة من وبر الجمل.. أدركت سيرينا أنها جائعة ووجدت أنها تسرعت في رفض دعوة كريستي اللبقة.. فقالت تعتذر:

- أرغب في الغداء.

عندما نظرت إليها كريستي بسخرية شكرت الله لأنها لا تعمل معها.. فمن الواضح أن كريستي طاغية في المكتب ومن الواضح أيضاً أنها تعرف لانس ستوراي خير معرفة، فإن تعاملت معها بحذر فقد

تعطيها بعض الدلائل عن كيفية التعامل معه.

تناولتا الطعام في مطعم صغير وراء زاوية الشارع مباشرة.

كانت الساعة تقارب الثانية وكان المطعم فارغاً تقريباً.. نصحتها كريستي أن أفضل ما على لائحة الطعام هي السلطة، وفيما كانتا تتناولان الخضار الطازجة الشهية، الخفيفة التوابل، سألتها كريستي:

ـ ما الذي جعلك ترغبين في العمل في مختبر؟ لا تبدين من هذا النوع.

ـ بدا لي هذا العمل أهم من العمل المكتبي.. ولم يكن هناك خيار كبير في «بلاكستون».. فليس في منطقة نورفولك وظائف كثيرة.

هزت كريستي رأسها: «أراه عملاً مملاً. ففي المختبرات جو من الإحباط.. ألا تحسين بالخوف حين يقدم صديقك على أحد اختباراته؟»

ـ خفت آخر مرة.. لقد كان أكبر انفجار.. ولكن لدى بندكت على ما يبدو حياة مسحورة، فقد خرج منه سليماً إلا من بعض الخدوش. أتعرفين أن هذه الأبحاث تبدو على الورق مثيرة؟ ولكنه مضطر إلى دعم نظرياته بعرض عملي، وللأسف أنه لم يجد التركيبة الصحيحة حتى الآن.. لقد أنجز العمل الهام، ولم يبق أمامه إلا وضع اللمسات الأخيرة، فإن طرده السيد ستوراي ثم أعطى أبحاثه إلى شخص آخر لينهيها، فسيكون ذلك عملاً مجحفاً بحق بندكت فالفضل يعود إليه، ولكنه لن ينال شيئاً متى ترك الشركة.

نظرت سيرينا بجدية إلى كريستي ريفز ثم أردفت:

ـ هل فهمت قصدي؟

أكلت كريستي قطعة خيار وهي تفكر:

ـ من المؤسف أن يكون جيداً في النظريات وفاشلاً في التطبيق.

ـ لا أحد كامل، أعرف أن السيد ستوراي غاضب الآن، ولكن لو استطعت التكلم معه على انفراد مدة نصف ساعة فقد أقنعه وأوضح له جسامة ما يقدم عليه من ظلم بحق بندكت.

نظرت إليها كريستي ساخرة:

ـ أنا لا أعتمد على هذا، لأن لانس يفكر في من يسلّمه المشروع.

تحركت سيرينا منفعلة في كرسيها:

ـ لا يمكنه ذلك. سأقابله حتى لو اضطررت إلى الجلوس في ردهة الاستقبال لأسبوع.

أنهت كريستي طعامها ونظرت إليها مبتسمة: «هو مسافر إلى بروكسل يوم الاثنين وسيبقى هناك مدة أسبوعين. آسفة».

ـ إذن يجب أن أراه بعد الظهر..

ـ لن يعود من الغداء قبل الرابعة، ثم سيغادر باكراً ليقضي عطلة الأسبوع في كوخه في «نورفولك».

ـ نورفولك؟ أين؟

ـ ليس لدي فكرة، ولا أعرف العنوان. وكل ما أعرفه هو رقم الهاتف.. وهو ليس خطاً مباشراً، لذلك لا يمكنك التأكد من العنوان.. ولكن، أستطيع أن أقول إنه ليس مكاناً قريباً من «بلاكستون»، فهذا ما كنت أعتقده في البداية ولكن لانس أكد لي أنه ببعد ما يقرب الساعة عن المختبرات.. أظنه تعمد شراءه في مكان بعيد عن المختبرات لأنه أراده مكاناً نائياً هادئاً لا يصل إليه أحد.. وممنوع عليّ قطعاً أن أعطي رقم هاتفه إلا في حالات الضرورة القصوى.. كحادثة صديقك مثلاً.

ابتسمت لها.. ثم تقدمت الساقية لتأخذ الأطباق المستخدمة، وسألت: «قهوة».

هزت الفتاتان رأسيهما إيجاباً، ثم تمتمت سيرينا:

ـ ليتني أتحدّث إليه على انفراد مدة نصف ساعة فقط فقد أجعله يصغي إلي!

ـ لن تكفيك نصف ساعة. يلزمك يوم كامل، على الأقل.

ضحكت ولكن سيرينا لم تكن تشعر بالمرح: «ولكنني أعني ما أقول».

توقفت عن الضحك، لتتفرس بسيرينا باهتمام حاد:

- ألديك سيارة؟ بإمكان اللحاق به إلى الكوخ.

تأوهت: «جئت بالقطار».

ظهرت الساقية مع الفاتورة، فانتزعتها سيرينا قائلة بإصرار:

- سأدفع أنا..

قبلت كريستي ذلك مبتسمة وفي أثناء العودة قالت السكرتيرة:

- ربما أنت محظوظة إذ لن يعين لانس أحداً لاستلام المشروع قبل عودته من بروكسل..

ضحكت وهي تنظر إلى سيرينا بسخرية:

- أنت لجوجة.. كدت تقنعينني رغم اقتناعي بجسامة ما فعله صديقك. أفهم الآن لماذا أرسلك صديقك لإقناع لانس.

سألت سيرينا بسرعة: «هل أنت قادرة على إقناع السيد ستوراي بمقابلتي؟»

هزت كريستي رأسها: «إن ظل مزاجه على هذه الحال فلن أصل معه إلى نتيجة».

فتحت الباب المتحرك، تنظر إلى موظفة الاستعلام بحدة.. كانت الفتاة تطبع بسرعة ولكن من الواضح أنها بدأت لتوها.. تجاوزتها كريستي، ودخلت إلى غرفتها أما سيرينا فجلست تنتظر وعينها على ساعتها.

كادت الساعة تبلغ الرابعة عندما سمعت صوت المصعد الذي أطل منه لانس ستوراي ترافقه كلاريسا هوارد. تجهم وجه سيرينا:. كانت كلاريسا مرتدية سترة بيضاء من فراء «المينك» فوق فستان أسود أنيق. رأت سيرينا لمعان الذهب على عنقها، وبريق الألماس في أذنيها الصغيرتين.. تمنت بشراسة لو كانت هذه الشقراء في الجهة الأخرى من العالم فبوجودها لن تحصل على اهتمام لانس ستوراي.

ابتسم لانس ستوراي ساخراً وهو يمر بسيرينا: «ما زلت هنا؟».

بدا وكأن كلاريسا لم ترها، فقد تحركت قربه مختالة وكأن لا أحد غيرها جدير بالملاحظة.

تنهدت موظفة الاستعلامات، وهي تحدق إليهما وعندما اختفيا قالت:

- هل شاهدت هذا الفراء؟.. إنها رائعة الجمال.. أليس كذلك؟ أتساءل عما يشعر به المرء عندما يكون ثرياً؟ والدها من أعضاء مجلس الإدارة. يقال إن السيد ستوراي مقدم على الزواج بها وأنا آمل ذلك لأن زواجه سيضع حداً لارتفاع أنف كريستي التي لن تقدر عندئذ على التصرف وكأنها تملكه. أليس كذلك؟

لم يكن هناك متسع للوقت لترد سيرينا، فقد ظهرت كريستي مرة أخرى، وسارعت الموظفة إلى القيام بتمثيلية العمل تحت أنظار كريستي التي لم تكن وحدها هذه المرة إذ كانت كلاريسا هوارد تسير خلفها وهي تقول بصوت واضح متعجرف:

- كيف تجرؤين على الكلام معي بهذه الطريقة؟ من تظنين نفسك؟ أعطيني ذلك الرقم وإلا تحدثت إلى أبي.

ردت كريستي بحدة:

- لو أعطاني السيد ستوراي التعليمات لأعطيتك رقم هاتفه الخاص.

صاحت الفتاة: «أنا أعطيك التعليمات.. أبي أحد مديري المؤسسة، هل نسيت هذا؟»

- أبداً آنسة هوارد، وأنا آسفة، فهذه هي الأوامر. إن عصيت أمر السيد ستوراي وقعت في المتاعب.

واجهتها الشقراء وفي نظرتها التكبر البارد:

- ستقعين في المتاعب إن أزعجتني.. لقد طلبني السيد ستوراي للزواج.. هيا أعطيني الرقم!.

نظرت إلى كريستي بعينين متقدتين، فهزت كريستي رأسها رافضة فقالت كلاريسا: «ستندمين على هذا».

ابتعدت وهي ترتجف غضباً وسُمع الباب المتحرك يهسّ بقوة وهو يتأرجح خلفها حتى كادت سترة الفراء تعلق به.. وفيما هي تراقب عن كثب مذهولة رأتها سيرينا تلتفت وتشد السترة بعنف قبل أن تتجه إلى المصعد.

بدأت تضحك ثم التفتت إلى كريستي لكنها لم تجد في وجه المرأة أقل مرح.. من الواضح أنها غاضبة فقد رأت خطاً أبيض حول فمها.. وعندما مرت قرب سيرينا قالت بحزم:

ـ تعالي إلى هنا.. أريد مكالمتك.

لحقتها سيرينا على مضض متسائلة عما إذا كانت سترميها إلى الخارج. ولكن السكرتيرة وقفت قرب المصعد الذي سمعتاه يوصل كلاريسا إلى الأسفل.. ثم التفتت كريستي تقول:

ـ إن كنت مصممة على الكلام مع لانس فثمة طريقة واحدة لهذا.. سيارته في الموقف تحت المبنى. لديّ المفاتيح.. كان عليَّ وضع بعض المعدات في الصندوق وقد وضعتها ولكنني لم أرجع إليه المفاتيح حتى الآن.. فلو اختبأت في المقعد الخلفي فربما لن يلاحظ أنك فيه قبل أن يصل إلى الكوخ. عندما يراك سيغضب طبعاً ولكنك ستستطيعين على الأقل مكالمته.

انفغر فم سيرينا.. لم تصدق أذنيها.. لماذا تعرض كريستي عليها المساعدة؟ قرأت كريستي الريبة والقلق على وجه سيرينا.. فاستدارت تهز كتفيها:

ـ إنسي الأمر.. إنها فكرة مجنونة على أي حال! ما كان عليَّ اقتراحها عليك.. إنما أغضبتني هذه الشقراء السامة، ويبدو أنني فقدت صوابي.

أمسكت سيرينا بذراعيها «أظنها فكرة رائعة.. وسأنفذها بلا تردد!»

ترددت كريستي عابسة:

ـ إن وجدك فلا تقولي له إنني ساعدتك.. آه! لا، لا أستطيع الإقدام

على هذا الأمر. سيقتلني!

ـ لن أتفوه بكلمة ولن يعرف.. أرجوك.. لا تتراجعي الآن.

ضغطت على زر المصعد وهي تمسك بذراع السكرتيرة بشدة.. وعندما وصل شدتها إلى الداخل على الرغم من احتجاجها الضعيف.. تأوهت كريستي أثناء نزول المصعد.

ـ أعرف أنني سأندم على هذا!

كان موقف السيارات مظلماً فليس فيه إلا بضعة مصابيح لا تلقي غير نور أصفر هزيل، يزيد من الظلال التي ترسلها العواميد الإسمنتية.. تقدمت كريستي إلى سيارة سوداء كبيرة، ولكن سيرينا تراجعت فقد شعرت ثانية بالخوف والقلق.. لماذا تساعدها كريستي؟ هل جرحت كلاريسا كرامتها إلى درجة الانتقام من لانس؟

التفتت إليها كريستي: «ما بالك؟ هل غيرت رأيك؟»

ـ لا!

ثم صممت على المضي قدماً بالمشروع. لقد مر بها لانس ستوراي بعد ظهر اليوم غير مكترث بها وكانت الشقراء تمسك ذراعه. ستجبره بطريقة أو بأخرى على الإصغاء إليها.

ـ تذكري.. لا أعرف شيئاً عن الأمر.. كانت السيارة مفتوحة و...

ـ لا تقلقي، سأقول إنك طردتني من الباب الأمامي، فعدت إلى الكاراج من بابه الخلفي وعندئذ رأيت سيارته.

صعدت سيرينا إلى المقعد الخلفي الذي كان واسعاً وبما أن للمقاعد الأمامية ظهراً مرتفعاً فقد يخفيها عن عينيه. أيهم كثيراً أن تعرف دافع كريستي؟ لكل منا دوافعه، وليس سهلاً معرفة دوافع كل امرىء.

قالت كريستي مترددة ويدها على الباب:

ـ لن يتأخر.. حظاً سعيداً.

أقفلت الباب وتوارت مبتعدة، يرنّ وقع قدميها على الإسمنت..

بعدما تلاشى الصوت بدا المكان مظلماً رهيباً وفارغاً، فتمنت وصول لانس ستوراي بسرعة لأنها لا تريد لقرارها أن يضعف، وقد يضعف إن ظلت مدة طويلة في هذا المكان تفكر.

وجدت بساطاً للسيارة على المقعد الخلفي فجذبته إليها. عندما يقترب ستشده فوق رأسها، وتتمدد على الأرض.. ولكن ماذا إن نظر إلى الخلف فوجدها؟ ماذا لو غيرت كريستي رأيها وأخبرته أنها مختبئة في سيارته؟ ما زالت قلقة من تصرف السكرتيرة.. ففي عرضها أمر غريب.

مرت نصف ساعة كادت تنام فيها داخل السيارة الدافئة المظلمة.. وكانت تكبو عندما سمعت وقع أقدام تقترب منها. جذبت بيدين مرتجفتين البساط فوقها والتصقت بأرض السيارة. دس لانس المفتاح في قفل الباب، ثم توقف. ربما يتساءل لانس ستوراي لماذا الباب مفتوح!.

كادت لا تتنفس، أصغت إليه وهو يتوجه إلى مؤخرة السيارة. ماذا يفعل؟ آه! سينظر إلى الداخل.. وقفز قلبها في صدرها كضفدعة وجلة، ولكنه تابع طريقه ليفتح الصندوق. وفي اللحظات التالية نضحت سيرينا عرقاً. لماذا وافقت على هذا؟ لا بد أنني مجنونة.. ربما عليَّ أن أخرج الآن ولأتحمل اتهاماته.. ولكنه سيكون غاضباً حين يراني.. يا إلهي.. لماذا أنا هنا؟

انغلق الصندوق بحدة ثم تعالى وقع الأقدام على الإسمنت متجاوزاً الباب الخلفي.. فأغمضت عينيها وكأنما إغماضهما يجعلها غير مرئية، وبعد لحظات قليلة استوى إلى مقعد السائق.

دار محرك السيارة ثم تعالى صرير الإطارات على الإسمنت، وما هي إلا لحظة حتى كانت السيارة منطلقة. رأت سيرينا النور من بين قماش البساط فوق رأسها.. جعلها الإرهاق، والذعر، والتوتر، تغمض عينيها ثانية.. مع أنها قاومت إغراء النوم لئلا تصدر صوتاً أو حركة قد تنبه لانس إلى وجودها.

صمَّ الزحام الآذان فخاطرت سيرينا بالتحرك لتحسن جلستها فكان أن دست ساقيها تحت المقعد الآخر إلى جانب لانس، وأسندت رأسها إلى كتاب كبير وجدته تحت المقعد.

بعد ذلك لم تعد تعي إلا شيئاً واحداً هو الجلبة المرتفعة، كانت تحلم ولكنه لم يكن حلماً مرضياً.. فقد رأت في منامها أن رأسها سيُقطع، وأنها تجثو على ركبتيها وعنقها على كتلة خشب ضخمة.. لم يكن وضعها مريحاً، ولكن تفكيرها بما سيأتي جعلها تصيح: لا!

استقامت مذعورة مرتبكة وفتحت عينيها وعندئذ تذكرت أين هي.. السيارة لم تعد تتحرك.. والمحرك متوقف.. سمعت وقع أقدام على الحصى خارج السيارة وتنسمت ريح البحر.. لا مجال للخطأ في رائحة الماء المالحة أو في أصوات الأمواج والريح.

رفعت رأسها ببطء وحذر فلمحت جسد لانس ستوراي الطويل على بُعد أقدام.. إنه واقف على شرفة مسقوفة صغيرة، يفتح باب الكوخ الأمامي. عندما اختفى في الداخل، راحت عينا سيرينا تتأملان الواجهة بفضول.. كان المكان صغيراً مطلياً بالأبيض وهو مؤلف من طبقتين، في كل طبقة نافذتين فقط وأمام الكوخ حديقة ملتفة حوله.

دلَّها منظر الكوخ إلى أنه مبني منذ قرن. ربما ككوخ لعمّال، فثمة غرفتان في الطبقة العليا وأخريان في الطبقة السفلى. أما النوافذ الصغيرة فلا تلقي بدون شك إلا نور ضئيل على الغرف المنخفضة السقف.

مددت أطرافها المتشنجة، وتسللت من السيارة، وهي تدلك رقبتها.. كان الكتاب قد حفر شقاً مؤلماً في رقبتها.. لهذا رأت في منامها أن رأسها سينقطع.. كانت الشمس قد مالت إلى المغيب، والعتمة تزداد.. نظرت إلى ساعتها فوجدتها تكاد تبلغ السابعة والنصف.. لماذا طال بهم الوقت للوصول إلى هذا المكان.

توترت لأنها وجدت المكان معزولاً عن أي بناء آخر. لقد قالت كريستي إن الكوخ في مكان ناء.. ولكنها لم تقل إنه يبعد أميالاً عن

أقرب بناء. إن سيرينا لا ترى إلا السماء الرمادية والحقول والمراعي الوعرة.. ولكنها عندما لم تر البحر علمت أنه في مكان ما نحتها، وأن الكوخ موجود فوق جرف صخري مرتفع.. أين هي بالضبط يا ترى؟

في تلك اللحظة بالذات خرج لانس ستوراي من الكوخ ووقف جامداً حينما شاهدها.. راقبت سيرينا بتحد ردة فعله على وجهه: الدهشة، ثم عدم التصديق، والحيرة يتبعها الغضب الذي لا مجال للخطأ فيه.

صاح بصوت أجفلها:

ـ ماذا تفعلين هنا بالله عليك؟ كيف وصلت إلى هنا؟

نظر حوله، وكأنه يتوقع رؤية سيارة أخرى، وراحت عيناه الرماديتان الباردتان تبحثان في الأراضي المظلمة حوله.

قالت بصوت متعب غير ثابت: «جئت معك».

نظر إليها، وحاجباه خط واحد مستقيم من شدة الغضب:

ـ معي؟ في سيارتي؟

همست: «على أرض المقعد الخلفي».

ـ اختبأت في سيارتي؟ متى؟ عندما كنت في الكاراج؟ كيف عرفت أنها لي؟ هل شاهدتها حينما كنت أزور المختبر؟

دس يديه في جيبيه، فتمنت أن تبقيا هناك.. كانت ترى من مكانها حدة غضبه وقوته فإن ظهرت هاتين اليدين من جيبيه، فقد تحاولان خنقها.

ـ لم تكن مقفلة.. يجب أن أكلمك.. اسمع.. أعرف أنك غاضب.. ولكنني لم أجد غير هذه الطريقة لألفت انتباهك. أرجوك، أصغ إليَّ بضع دقائق فقط.

ـ لا.. بل أنت أصغي إليَّ أيتها الحشرة المزعجة! لا أريد سماع كلمة أخرى عن رامسي.. ألا تدركين مدى الخسارة التي أحدثها هذه المرة؟ ألديك فكرة كم ستكلفني المعدات التي فجّرها؟ سيبقى ذلك

المختبر معطلاً عدة أسابيع وهذا ما يؤخر المشروع كله.. ألوم نفسي لأنني تركته يعمل عندي هذه المدة كلها!

فتحت فمها، ولكنه تقدم ثلاث خطوات فأصبح على بعد إنشات منها، ومال نحوها يصيح هادراً:

ـ لا تضيفي كلمة أخرى.

انتفضت بشكل ظاهر، اتسعت عيناها.. ساد صمت قصير سمعت في أثنائه أنفاسها المتسارعة المصدومة.. ثم أخفضت عينيها هامسة:

ـ إذن، من الأفضل أن أذهب.. على ما أعتقد.

ـ كيف؟

رفعت نظرها بارتباك:

ـ سأتصل ببندكت الذي سيأتي لاصطحابي.

ـ لن تتصلي به من هنا.. فهذا مخبأي السرّي الخاص. ظل العنوان سراً مدة خمس سنوات.. لا أريد لأحد في الشركة أن يعرف أين يجدني أثناء وجودي هنا، ولن أكسر هذا القانون من أجلك. جئت إلى هنا بدون مساعدتي.. فعودي بالطريقة نفسها.

رمت الريح خصلة كبيرة من الشعر الأحمر على عينيها.. فدفعتها إلى الوراء بيد مرتجفة..

ـ حسناً.. أتطلب لي سيارة أجرة إذن.. أرجوك؟

ـ لا..

مرّ بها، ليفتح صندوق سيارته الذي تناول منه عدة علب ثم عاد بها إلى الكوخ.. فتطلعت حولها، تحس فجأة بالظلام الذي لف الريف بكامله.. كم تبعد أقرب قرية؟ أوه.. لا شك أنها مجنونة لأنها أوقعت نفسها بهذا المأزق!

عاد لانس ستوراي فرآها ما تزال مترددة. نظر إليها بسخرية:

ـ ما زلت هنا؟ ما أصعب التخلص منك! ولكن إذا كنت تنوين العودة سيراً، فعليك التحرك بسرعة قبل أن يصبح الظلام دامساً على

الطريق.. واعلمي أن لا طريق مستقيم مباشر إلى أقرب قرية. الطرقات هنا متعرجة وليس عليها لوحات ترشدك إلى وجهتك فكلها تشير إلى «نورويتش» غافلة كل مكان آخر. وإن ضعت فقد ينتهي أمرك بالوقوع من فوق الصخور.. وإن تمكنت من سلوك الطريق الصحيح، فعليك المسير ستة أميال حتى تصلي إلى نزل يمكنك الاتصال بمن تريدين فيه. ذاك النزل دافىء فيه مدفأة حطب حقيقية مبنية موضوعة في قاعة الاستقبال العامة.. هذا إذا كان المكان مفتوحاً عند وصولك إليه. ترى إلى أي مدى تستطيعين الإسراع في سيرك؟

كانت ترتجف من الغضب الذي جعلها توشك أن تضربه.. تمتمت ويداها مضمومتان إلى جنبيها: «لا أجدك مرحاً».

وقف أمامها.. إنه رجل طويل قاسٍ، تظهرها عيناه كطفلة غبية.

ـ إننا نشعر الشعور ذاته يا آنسة برنتيس.. هل اعتقدت أنني سأسر برؤيتك؟ لقد تماديت في تقدير مدى جاذبيتك.

ازداد امتقاع وجهها: «لم أرد إلا محادثتك بشأن بندكت، فلماذا لا تصغي إلي، ولو لبضع دقائق؟»

ـ هو لا يستحق إخلاصك.. إنه أبله.

ـ لا.. هو ليس أبلهاً بل إنسان ذكي، ولكن لديه عيب خطير. هذا كل شيء..

ـ كلمة خطير.. على الأقل صحيحة.

سارعت تتقدم ترجوه قبل أن يوقفها:

ـ فكرت في أن يقوم بندكت بالأعمال النظرية على أن يتولى غيره الجزء العملي من الاختبارات فبذلك تنتهي المشكلة.. لم أرغب في ترك الوقت لك خشية أن تعيّن شخصاً آخر محله.

تمتم: «وهل الشخص الذي سيقوم بالجانب العملي هو أنت؟»

ـ سأكون مسرورة بذلك، ولكن إذا فضلت شخصاً آخر..

نظر لانس إلى ساعته: «لا أعرف عنك شيئاً ولكنني جائع

ومتعب.. فهل لك فيما أفرغ حمولة السيارة في دخول المطبخ لتحضير إبريق شاي؟ لقد وضعت سلة على الطاولة فيها بعض الجبن والخبز والفاكهة، وفيها علب حساء. هل لك المباشرة بتحضير وجبة طعام؟»

ترددت: «بالطبع ولكن..»

رفع حاجبيه: «لكن؟»

ـ فيما بعد.. أنقلني إلى أقرب قرية.. أرجوك؟ لأتصل ببندكت خشية أن أواجه خطر الوقوع من فوق الصخور.

ابتسم وإن يبرود:

ـ لا آنسة برنتيس.. لن أفعل كما أني لن أقودك إلى أي مكان الليلة.. سأتناول وجبة طعام، ثم آوي إلى فراشي.. أريد أن أستيقظ في السادسة صباحاً لأصور بعض المناظر عن الجرف الصخري.. إنّ أفضل وقت لتصوير طيور البحر وهي تعشش هناك هو قبل الفجر.. أريد ليلة هانئة قبل أن أتوجه إلى هناك.

كانت عيناه بلون الفجر المتجمد وهو ينظر إليها ويكمل:

ـ وبناء على ذلك أمامك خياران مثيران للاهتمام: إمّا السير حتى تجدي القرية وإمّا قضاء الليلة هنا.. ثمة غرفة نوم واحدة، وسرير واحد، سأستخدمهما أنا.. ولكنني أرحب بأن تشاركيني سريري.. وإلا فهناك أريكة في غرفة الجلوس. يمكنني تأمين وسادة وبطانيتين.

كان في أثناء حديثه يراقب اللون الأحمر المتصاعد إلى وجهها.. ولكنه استدار بعد قليل وعاد إلى المنزل.. فاستعادت سيرينا أنفاسها عندما رأته يدخل إلى الكوخ فصاحت من ورائه:

ـ لا يمكنني البقاء هنا طوال الليل.

سمعته يضحك:

ـ كان عليك التفكير في هذا قبل اختبائك في سيارتي!

* * *

٣ ـ وحدهما في الليل

دخلت سيرينا إلى المطبخ مرتجفة وبدأت بتفريغ سلة الطعام الصغيرة التي وجدتها على الطاولة.. لم تصدق أنه عنى ما قال.. فهو لن يجبرها على قضاء الليل هنا، وهي وحدها معه؟ لا شك في أنه يعذبها لأنها أزعجته.. تفهم كم من المزعج أن يقطع المرء هذه الطريق كلها بحثاً عن بعض الراحة والهدوء فيجد نفسه أمام ضيف غير مدعو.. ولكن لن يستغرق إيصالها إلى أقرب قرية أكثر من نصف ساعة، أليس هذا صحيحاً؟

نظرت إلى الأغراض التي وضعتها على الطاولة: قطعة كبيرة من الجبن، بعض التفاح والبرتقال، رغيف فرنسي طويل وثلاث علب من حساء الخضار الجاهز.. إن لم يحضر إلا هذه الكمية القليلة من الطعام للعطلة كلها فهذا يعني أن عليه الاقتصاد بطعامه أم تراه يتناول طعامه الأساسي في الخارج؟ سمعته يعود إلى الطابق الأعلى. كانت خطواته ثقيلة وكأنه يحمل شيئاً ضخماً.. لم يدهشها أن تعرف أنه يهوى علم الأحياء لأن للعديد من التجارب التي يجريها علاقة بالأرض، وتذكر أنها سمعت أنه من عائلة مزارعين، غير أن الشائعات الدائرة حوله تجعل المرء غير متأكد من أية معلومة.

إن لانس ستوراي من النوع الذي تحاك عنه الأساطير، وتروى عنه كل أنواع القصص، الصحيحة والكاذبة.. يتكلم الناس عنه ثم يخترعون ما يجهلونه أو يضيفون الفلفل والبهار على ما يعرفونه.

بعدما أعدت الشاي وجدت خزانة مليئة بالأواني الخزفية ودرجاً مليئاً بأدوات الطعام.. فكان أن حضرت المائدة غير أن فضولها تضاعف فأرادت معرفة ما يفعله حين يكون وحيداً.. تأثرت وإن على مضض بنظافة المطبخ وبترتيبه، وبالطريقة التي وضع فيها كل شيء في مكانه، فتساءلت هل هو من يقوم بهذا العمل أم هناك من يأتي لتنظيف الكوخ بعد عودته إلى لندن؟ تمنت أن تصدق هذا غير أن إحساسها يقول بأن لانس ستوراي يعيش دائماً هكذا منظماً ودقيقاً.

أقفل الباب الأمامي، فأجفلت سيرينا.. وضعت الفناجين بسرعة، بيدين غير ثابتتين، وكانت تصب الشاي حين انضم إليها.

تقدم إلى المغسلة يغسل يديه، ويقول من فوق كتفه:

ـ لقد بدأ المطر بالهطول وهذا يعني أنك ستبقين إن ذهبت الآن.

نظرت بسرعة إلى خارج نافذة المطبخ، فشاهدت قطرات المطر تنهمر على الزجاج.. ساعتئذ فقط التقطت أذناها وقع المطر المنهمر على سطح الكوخ.. اللعنة.. حدقت إلى النافذة المبللة.. إن استمر المطر فقد لا يتمكن من التصوير غداً صباحاً.. أليس كذلك؟ وقد يعني هذا أنه غير مضطر للنهوض باكراً، أو الذهاب إلى الفراش باكراً، وبإمكانه إيصالها إلى القرية.

ولكن سيرينا لم تقل هذا، بل تمتمت:

ـ الشاي جاهز.

التفت نحوها وهو يجفف يديه.. وما صدمها أنها شعرت بخفقان غريب بين جنبيها وكأن فراشة عالقة هناك.. نظرت إليه بعينين مفتوحتين على وسعيهما فرد لها نظراتها، وعلى وجهه تعبير حائر متسائل.. كان المطر في الخارج ينهمر على ممرات الحديقة بصوت مرتفع.. تماسكت سيرينا وجلست فتقدم لانس ليجلس قبالتها سائلاً: «أين الحساء؟»

ـ آه! نسيته!

وقفت ولكنه مد يده يمنعها.

ـ لا بأس، سنأكل الخبز والجبن فقط.

ـ أليس هذا الطعام ثقيلاً على المعدة في الليل؟

ـ إنه لا يزعجني بل أنا أعيش عليه أثناء وجودي هنا.. فليس لدي وقت لأطبخ.

لم تكن جائعة.. فأخذت برتقالة وبدأت تقشرها أما هو فراح يأكل بعض الخبز وقليل من الجبن.. وقال:

ـ في أيام الأسبوع في لندن، آكل كثيراً.. فأنا أمضي كثيراً من وقتي في غداء عمل.. وكم تمنيت لو أستطيع العودة إلى الأيام الغابرة حيث كنت أعمل فيها بنفسي في المختبر.. كان ذلك مسلياً أكثر بكثير وكان العمل ممتعاً.

ـ لماذا لا تترك الجانب الإداري لشخص آخر لتعود إلى المختبر إذن؟

التوى فمه بغضب: «هذا مستحيل».

نظر إلى البرتقالة التي بدأت تقضمها، وقال:

ـ إن أردت بعض الحساء فتناوليه.

ـ لا.. لا يهم.. فلست بجائعة.

أنهت قضم البرتقالة، وذهبت إلى المغسلة تغسل يديها. وسألته من فوق كتفها:

ـ لماذا يستحيل عليك العودة إلى العمل في المختبر؟

عندما ظلّ صامتاً التفتت إليه فرأته ينظر إليها بحدة، وعيناه مسودّتان.

ـ أنت لجوجة كذبابة الخيل.. ألا تعرفين أبداً متى ينتهي الموضوع؟

احمر وجهها:

ـ لم أقصد أن أكون لجوجة.. فأنا معتادة على الحديث عن المشاكل مع إخوتي..

صمتت مسمّرة، تفغر فاها شاهقة:

ـ آه! لقد نسيت! أخي دبوغ ينتظرني على العشاء هو وزوجته الليلة! وسيتساءل عما أصابني فقد وعدت أن أبيت عندهما.. هل لي أن أتصل به لأشرح له؟

وقف نافد الصبر:

ـ وهل هذه فكرة سديدة؟ سيطرح عليك أسئلة عن مكان وجودك، وبما أنك لن تستطيعي الإجابة، فستزيدين الأمور سوءاً.

تقدم إلى الباب: «سآوي إلى فراشي».

صاحت به: «لا يمكنك تركي».

التفت إليها وعيناه نصف مغمضتين، وابتسامة صغيرة على فمه:

ـ تريدين المجيء معي؟ لمَ لا؟

جالت عيناه فوق جسدها، وتراكضت نبضاتها بجنون حذر. تراجعت حتى التصقت بالجدار وتعالت أنفاسها بصوت مسموع.

ـ لا تمازحني هكذا. لا أظن أن مثل هذا المزاح مضحك.

تمتم بصوت ملؤه التسلية:

ـ لم أكن أمزح.. يجب أن أعلمك عدم القفز قبل أن تنظري أمامك.. ألم يخطر ببالك أن من الطيش رمي نفسك معي هنا؟ قد يعتبر بعض الرجال ما فعلت دعوة صريحة، لا يمكنهم رفضها.

تنقلت عيناه من نظرتها الدهشة إلى ثغرها المفتوح فصدرها المضطرب.

ـ أنت فتاة عنيدة، ربما يجب أن أوقف الهاتف، وأحملك معي إلى الفراش، لأنني لا أثق بك وأخشى أن أتركك بمفردك هنا.

ارتدت نحو المغسلة حيث وجدت مقلاة أرادت طهو الحساء فيها ونسيت.. فأمسكتها من قبضتها. ضحك لانس ستوراي.

ـ وماذا ستفعلين بها؟ يا لجنونك!

ثم توجه إلى الباب قائلاً من فوق كتفه:

ـ مع أنك مسلية آنسة برنتيس، إلا أنني ما زلت مصمماً على النوم باكراً، لذلك أقترح أن عليك المجيء لتأخذي الوسادة والبطانيتين ولتعدي بعد ذلك فراشاً فوق الأريكة. سأستيقظ قبل الفجر ولكنني سأوقظك معي لأقلك إلى «سانت إيدن» فثمة باص ينطلق منها إلى نورويتش في السادسة والنصف وستمضي ساعات بالطبع وأنت تتنقلين من قرية إلى أخرى ولكن هذا سيلقنك درساً. يبدو أنك لا تبالين حتى وإن أزعجت الناس وقد تشعرين بأنك غير سعيدة عندما تنزعجين.

صرّت على أسنانها ثم لحقت به بدون أن تجرؤ على قول المزيد. دخل إلى غرفة النوم في الطابق العلوي أما هي فوقفت في الممر بانتظاره. ثمة غرفتان في هذه الطبقة إحداهما غرفة نومه والأخرى غرفة شاهدت من بابها المفتوح معدات علمية من كل صنف: مجهر ورف ملىء بقوارير مختبر وجرار وآلات تصوير وعلب صور ومنظار وتلسكوب كبير قرب النافذة ورفوف تعجّ بالكتب، ودفاتر ملاحظات.

هل يهرب إلى هنا من طاحونة العمل في لندن إلى ساعات من العمل العلمي؟ نظرت بحيرة إلى الغرفة. لماذا لا يستطيع العودة إلى المختبر؟ أيصعب عليه تسليم القسم الإداري إلى شخص آخر؟ لقد لمّح إلى أنها لا تحس بمشاكل الآخرين، ولكنها أثارت فيه الغضب والإحباط عندما كلمها أثناء العشاء.

تقدم لانس ستوراي إليها حاملاً البطانيتين والوسادة. فقالت معتذرة: «آسفة لأنني أزعجتك».

ـ اعتذار متأخر ولكنني أقبله.

تورد وجهها ثانية بسبب سخريته: «لكن..»

تنهد: «ولكن ماذا يا آنسة برنتيس؟ لا تعودي إلى الحديث عن رامسي مرة أخرى، لأنني سمعت ما أريد سماعه عنه».

ـ لا.. كنت.. حسناً.. كنت أبحث عن حمام ولم أجد واحداً.

لوح بيده إلى غرفته: «أخشى أن لا حمام إلا في غرفتي».

تطلعت مذهولة فوجدت باباً في الجهة الداخلية من غرفة نومه: «إنما هذا الترتيب غير ملائم».

ـ إنني أخصص هذا الكوخ لي أنا وحدي. لا.. اسمعي، سأنزل هذه الأشياء إلى الأسفل، وأضعها لك على الأريكة في غرفة الجلوس وفي هذه الأثناء استخدمي أنت الحمام.

بعدما تجاوزها مبتعداً دخلت بحذر إلى الحمام، تصغي إلى وقع قدميه على السلم الخشبي. نظرت إلى الغرفة فإذا هي مرتبة كسائر الغرف الأخرى.. على جانبي السرير فجوتان عميقتان تعجان برفوف الكتب.. لون السجادة والستائر أخضر. وعلى أحد الجدران مناظر طيور وأزهار ومراكب وثمة لوحة كبيرة فيها منظر البحر والسماء.. لاحظت سيرينا بثقة أنها رسوم لفنان واحد، وتساءلت بدهشة حادة عما إذا كان هذا الفنان هو لانس ستوراي نفسه.

لم يكن لديها وقت لتدقق النظر إذ كانت تريد استخدام الحمام والخروج منه قبل عودته.. سارعت إلى الحمام وأقفلت الباب وراءها.. هنا كل شيء أيضاً نظيف ومرتب. ثمة دوش صغير في مربع زجاجي ومغسلة، ومرحاض محشور في مساحة صغيرة كحال المراحيض في المراكب. ترى هل يبحر لانس ستوراي؟ تشك في هذا.. ولكنه على الأقل يحب المراكب.. ففي غرفته صور مراكب.

عندما خرجت من الحمام كان ينتظرها، قال وهو ينظر إلى وجهها النظيف المفروك باهتمام: «وضبت فراشك».

ـ شكراً لك.

اتجهت إلى الباب وهي تمشي كالسرطان فوجودها معه في هذه الغرفة يوتر أعصابها.. كان وقع المطر الخفيف خارجاً يضفي على الجو دفئاً وحميمية وهذا ما ذكرها بأن لا كائن حي سواهما على بُعد أميال.. إنهما وحدهما في ظلمة الليل.

قال ساخراً، والضحك مستتر تحت نعومة صوته:

ـ تصبحين على خير.. ألن تغيري رأيك فتبقي معي؟

أسرعت سيرينا نحو الدرج ثم لمّا سمعته يقفل بابه أبطأت في سيرها تتنفس ببطء بعض الشيء ويزعجها مرحه بمقدار ما يزعجها غباؤها الذي أوقعها في هذا المأزق.

وجدت أنه نظف المطبخ وغسل الصحون وأبعد الطعام المتبقي. عندئذ أطفأت النور واتجهت إلى غرفة الجلوس التي كانت أكبر مما توقعت.. رأت نافذة ناتئة إلى الخارج مفتوحة قليلاً لتضفي الضوء عليها نهاراً.. ولكن الستائر كانت مسدلة فوقها.. هنا رأت أيضاً رفوفاً من الكتب على طول أحد الجدران وجهاز ستيريو غالي الثمن مركزاً في فتحة في الجدار قرب المدفأة التي قبعت فوقها لوحة زيتية كبيرة لكوخ وصخور، وسماء زرقاء مليدة بالغيوم. وقفت سيرينا أمامها تتأمل التوقيع الذي لم يكن سوى خربشة سوداء سريعة بفرشاة رسم. ظنت أن الاسم المكتوب بسرعة هو ستوراي ولكنها قد تكون مخطئة.

في الكوخ المرسوم ما هو مألوف. تأملته ورأسها إلى جهة واحدة.. هل هو هذا الكوخ الذي لم تشاهد منه سوى الواجهة تحت جناح الظلمة. هي غير متأكدة ولكن إذا كانت الرسمة رسمة هذا الكوخ فهذا يعني أن لانس هو الرسام!

تضاعف اهتمامها عندما رأت في الرسمة مرآة قاتمة على الجدار تعكس الغرفة التي وراءها. شاهدت غرسة خباز وردية في وعاء فخاري.. وكرسي مخملي الظهر، وشكلاً غامضاً، أنبأها حدسها بأنه على الأرجح امرأة والذي دلّها على ذلك انحناءة الثغر المبتسم والعينان الزرقاوان.. إنهما هنا، في المرآة، عالقتان بفن وحركة، فيهما حياة نابضة ولكنهما عالقتان في جمود رائع، وكأن صاحبتهما تسحب نفساً تجمد بين خفقة قلب وأخرى بفضل سحر ساحر. استطاع الرسام أن يرسم أكثر من مجرد الكوخ.. ففي المرآة حياة تقود إلى داخل الجدران لتكشف عن سعادة مرتجفة يكاد يكون وجودها محسوساً.

لم تتمالك سيرينا نفسها من الاقتراب لتتبين قسمات وجه المرأة، المنعكسة في المرآة. ولكن الوجه كان يبتعد كلما اقتربت أكثر إذ اختفى في دوامة من النقاط الملونة: أخضر وأبيض ووردي.

ارتدت بقوة فبرز الوجه من ضبابيته مبتسماً وكأنه يسخر منها لأنها حاولت الاقتراب منه. لم يكن الوجه وجه أحد سبق أن رأته بل لم تستطع رؤية شعر المرأة أو لباسها.. كان هناك وجه شاحب فقط، وعينان، وثغر. إن كان لانس ستوراي هو الرسام.. فمن هي المرأة؟ تساءلت عن ذلك ثم ما لبثت أن أمسكت تفكيرها عابسة.. هذا ليس شأنها.. أليس كذلك؟

إن كانت الشائعات التي تدور حوله صحيحة فهذا يعني أن في حياته عدداً كبيراً من النساء. لم يكن في المرأة شيء محدد غير أن سيرينا شعرت بالدفء والسعادة، فعزت ذلك إلى الضوء والورود المعترشة قرب باب الكوخ المرسوم وإلى السماء الزرقاء وإلى المحبة التي رسمت فيها اللوحة.

ابتعدت عامدة متعمدة لتفتش في رفوف الكتب، عما تقرأه.. علمت أنها لن تجد النوم سهلاً.. فالوقت مبكر أولاً، والتوتر يهيمن عليها ثانياً والفضول يدفعها إلى معرفة ذوق لانس ستوراي في الكتب ثالثاً.. كانت واثقة تقريباً أن كل الكتب في غرفة النوم والغرفة الأخرى علمية. أما هنا، فقد وجدت سلسلة أوسع من مواد القراءة: فهنا كتب في علم التشريح البشري وكتب في علم الحيوان والنبات وقصص بوليسية وروايات كلاسيكية وسير حياة العظماء.

اختارت كتاب لسيرة إحدى بطلاتها المفضلات.. العالمة ماري كوري. ثم تذكرت أنها ستنام على الأريكة.. ولكنها لن تستطيع أن تخلع كل ملابسها والسؤال: ماذا تخلع منها؟

كان لانس ستوراي قد وعدها أو هددها بأن يوقظها مع بزوغ الفجر وهي ولأنها لا تريد أن يجدها نصف عارية قررت النوم بالبنطلون فقط.

على الطاولة قرب الأريكة مصباح، اضجعت تحت البطانيات مسرورة ومستمتعة بدفئها وشرعت تقرأ حتى ثقل جفناها فأطفأت المصباح.. سمعت وقع المطر على زجاج النافذة وهدير أمواج البحر التي ازداد صخبها ولكن هذه الموسيقى هدهدتها فنامت نوماً عميقاً.

استيقظت على غرفة سابحة بأشعة شمس الربيع وعلى رائحة القهوة واللحم.. ظلت مستلقية لحظة أو لحظتين على الأريكة، تنظر إلى السقف بذهول ثم أدركت مصدومة أين هي فاستوت جالسة.

إنه وضح النهار، عرفت ذلك حتى بدون النظر إلى ساعتها. إذن لم يوقظها لانس ستوراي كما وعد، فهل استغرق في النوم أيضاً؟ تكاد الساعة تبلغ التاسعة، والمطر اختفى. سيكون اليوم رائعاً فالسماء زرقاء صافية فهكذا بدت من خلال النافذة.

لحظتئذ فقط استيقظت تماماً.. كانت الستائر مسدلة أمس. لقد دخل شخص ما إلى هنا أثناء نومها وفتحها.. شخص نظر إليها وهي لا تدرك أنها مراقبة.. شعرت بالحرج فالمرء يكره أن يتأمله الناس أثناء نومه إذ يكون غير حذر وضعيفاً.. ولكن الأمر أكثر من هذا.. فقد كرهت فكرة انحناء لانس ستوراي فوقها لينظر إليها وهي ملتفة بنحولها في هذا الفراش.

تسللت من الأريكة تمد يدها إلى الكرسي الذي وضعت عليه ملابسها ولكنها في عجالتها فقدت توازنها، فارتطمت بالكرسي الذي وقع، وعندما سارعت إلى التقاطه سمعت الباب يفتح.

استدارت بدهشة، وصاحت:

ـ أرجوك.. لم أرتد ثيابي حتى الآن.

ولكنه لم يخرج، بل راح يتأمل بيطء. كانت عيناه الرماديتان تطوفان على حناياها فزارتا بفضول متكاسل كل إنش منها وصولاً إلى قدميها.

ـ حسناً.. لقد استيقظت من النوم أخيراً.

ـ وعدت أن توقظني عند الفجر.

بما أنه لم يظهر دليلاً على أنه ينوي الابتعاد أعطته ظهرها وشرعت ترتدي ثيابها بأصابع مرتجفة.

ردَّ عليها: «لقد حاولت.. دخلت، وفتحت الستائر، وانحنيت فوقك، ثم هززتك قليلاً ولكنك كنت نائمة كالميت إذ لم تتحركي!»

كانت سعيدة لأنه لا يرى وجهها.. فقد يفضح اضطرابها الذي تولّد لأنها عرفت أنه تأملها عن قرب أثناء منامها.

بعدما ارتدت ملابسها استدارت وقالت له:

ـ كان يجب أن تصيح..

ابتسم ساخراً وقد تحركت عيناه مجدداً صعوداً ونزولاً وكأنه يعرف أنها مرتاحة الآن لأنها سترت نفسها ويستغرب خجلها.

ـ قررت أن أعد القهوة ثم أوقظك.. ولكنني خرجت أولاً لأخرج السيارة من الكاراج، فإذا بها لا تدور. وقع خطب ما للمحرك اللعين وأخشى أنني لن أتمكن من إيصالك إلى القرية قريباً.

لم تصدق ما تسمع فشهقت مصدومة، ثم فهمت ما قاله فنظرت إليه بقسوة. راح يراقب الريبة وعدم التصديق يتصاعدان على وجهها..

قال: «أعرف.. هذا بعيد عن التصديق».

ـ وهل تتوقع مني أن أصدق؟ فلست على هذه الدرجة من السذاجة.

قال متجاهلاً ملاحظتها:

ـ اتصلت بالكاراج، سيرسلون ميكانيكياً بعد ساعتين.. نظرت إلى المحرك بنفسي ولم أرَ فيه عطلاً. ربما العطل في الكهرباء.. فلا بد من وجود رطوبة في المحرك.

قالت غاضبة: «لا أقدر على البقاء هنا نصف اليوم يجب أن أتصل ببندكت».

رفع كتفيه بنفاد صبر وقال:

ـ أولاً.. لقد حضّرت الفطور، فإذا أردت بعضه فما عليك إلا الحضور بعد خمس دقائق، وإلا لن تتمكني من تناوله..

ثم ارتد على عقبيه متوتراً بشكل واضح فتساءلت عما إذا كان قد خرج لالتقاط صور أعشاش طيور البحر..

ركضت إلى الحمام وهناك غسلت وجهها ونظفت أسنانها بفرشاة إضافية وجدتها موضوعة هناك وهي ما تزال في غلافها. وعندما خرجت رأت سريره مرتباً.. إنه مدبر منزل حريص وكفؤ كأمها تقريباً.. ابتسمت ثم هرعت إلى تحت مجدداً وهي تشعر بالجوع.

أخرج طبقها من تحت السخّان، حيث أبقاه دافئاً، ووضعه برشاقة على الطاولة ثم عاد إلى مقعده قبالتها وصب لنفسه المزيد من القهوة قبل أن يسكب لها فنجاناً.

قالت سيرينا وهي تنظر بإعجاب إلى اللحم المطهو جيداً مع الفطر والطماطم، في طبقها:

ـ أنت مولع بالحياة المنزلية.

ـ تعلمت الاعتماد على نفسي منذ تركت منزل أهلي.. وفي الجامعة عشت في غرفة واحدة فيها سخّان صغير كنت أطهو طعامي عليه وهناك تعلمت أن لا بدّ من النظافة والترتيب وإلا عشت عيشة الخنزير في حظيرته. فكان أن دربت نفسي على النظافة والترتيب، والطهي باستخدام مقلاة واحدة وهذا ما أدهش أمي لأنني لم أكن حين أعيش معها أقوم بأي عمل منزلي بل كانت تقوم هي بكل شيء.. وهذه غلطة كبيرة، لكنها من جيل آخر، فقد تربت على الاعتقاد بأن الرجال عاجزين وأنهم أهمّ من أن يقوموا بأشياء تافهة كالطبخ وترتيب الفراش.

ضحكت سيرينا: «إنها كأمي إذ لا نفع من إخوتي».

ارتدّ إلى الخلف، يراقبها وهي تأكل: «كم أخ لديك».

ـ خمسة أخوة!

ـ خمسة؟ يا إلهي.. وكم أخت؟

ـ ليس لي أخت، إنني الفتاة الوحيدة في العائلة.

ـ هل هم أكبر منك؟

ـ أجل.. أنا الصغرى.

تناولت بندم ظاهر آخر قطعة فطر، وقالت:

ـ هذا أفضل فطور تناولته منذ سنوات.

فجأة رفعت رأسها مرتابة:

ـ من أين جئت بهذا كله؟ لم أرَ فطراً أو لحماً ليلة أمس.

ابتسم: «اشتريته من بائع الحليب الذي يبيع أيضاً الخضار والطعام في هذه الناحية.. فإنه يضم أنواعاً مختلفة من الأطعمة.

سألت: «فان؟ كان بإمكانه أن يُقلني إلى القرية؟ متى كان هنا؟»

ـ لم يأتِ إلى هنا.. رأيت سيارته تمر على الطريق قرب المرتفع الصخري، فأسرعت ألحق به عند مفترق الطريق، فهو لا يقصدني هنا إلا إن اتصلت به وطلبت منه شيئاً وأنا لا أفعل ذلك إلا إذا قررت البقاء في الكوخ أكثر من يومين.

ارتشفت قهوتها: لو عرفت، لانتظرته على ناحية الطريق...

ـ كان ذلك ممكناً. ولكنني نسيت أمره إذ لا يحتل بائع الحليب حيزاً من تفكيري في العادة.. آسف.

تمتمت: «لست آسفاً!»

وقف لانس ذو الجسد الرشيق القوي، وقال ساخراً:

ـ لا.. هذا صحيح.. لست آسفاً.. لم أدعُك إلى هنا إذن عودي إلى حيث تنتمين. لا أدري لماذا أزعج نفسي بك.. فبسببك خسرت أفضل جزء من هذا الصباح.. فما إن وصلت إلى الصخور حتى أشرقت الشمس، لقد وجدت الطيور البحرية قد غادرت أعشاشها ومنها ما وجدته مستيقظاً بحيث لم أستطع الاقتراب قيد أنملة. قصدت هذا المكان طالباً الهدوء مدة يومين ولكنك أفسدت عليّ كل شيء.. وبعدما طهوت لك فطورك وحاولت أن أتحمل إزعاجك كله أجدك تجلسين هنا عابسة غاضبة كفتاة صغيرة.. يجب علي أن أضربك على قفاك.

انكمشت في كرسيها خائفة: «حاول ترَ ما لن يسرّك».

دنا منها خطوة، فتوترت، ثم تمتم لاعناً وابتعد عنها:

ـ لا تقلقي.. لست معتاداً على ضرب النساء مهما كان الدافع! سألقي نظرة أخرى على سيارتي.. فإن كان العطل من الرطوبة فقد تدور إذ يجب أن تكون قد جفت.

راقبته يخرج وهي تحس بالتفاهة واللؤم.. لا تستطيع لومه لأنه فقد أعصابه معها، فهو لم يرد تحمل عبئها ومع ذلك عاملها بأدب إذ كان بمقدور بعض الرجال لو كانوا محله الإقدام على استغلالِ الموقف خاصة وهم عالقون هنا وسط اللامكان في كوخ معزول مع امرأة شابة.

نظفت المطبخ وغسلت الصحون، ثم توقفت.. أدركت أن تصرف لانس ستوراي المهذب معها كان أقل من إطراء لها.. فهو لم يغازلها في الواقع بل اكتفى بإلقاء بضع ملاحظات ممازحة عن مشاركته الفراش. عانت من تودد بعض الشباب في أوضاع أقل حميمية من هذه بكثير.. جرت محاولات لعناقها من فوق شعلة التسخين في المختبر، وسمعت اقتراحات مخجلة في ما كانت تنظر إلى المجهر. لقد عرفت عدة رجال، لو تركوا وحدهم معها في كوخ لحطموا باب الغرفة للوصول إليها.. وهم طبعاً رجال تحتقرهم وهي لا تريد أن يحذو حذوهم ولكنها في الوقت نفسه شعرت بأنه استخف بها.

من الواضح أنه لا يجدها مغرية أبداً. ترى ما الذي لا يعجبه فيها؟ بدأت تنظف الطاولة بغضب. لست شقراء زرقاء العينين.. أهذا هو الطراز الذي يعجبه؟ هذا محتمل.. وربما هو يحب كلاريسا هوارد فعلاً، لكنها تجد ذوقه سقيماً.. ماذا يجد في تلك الفتاة؟ إنها ثرية مدللة، حولها هالة الترف الذي يراه المرء في صور الثريات الأنيقات غير أنها لم تعجب سيرينا وهذه حال سكرتيرة لانس التي عانت من تهديدات كلاريسا هوارد وأهانتها. لم تكن الطريقة التي كلمت فيها الفتاة كريستي ريفز لائقة إطلاقاً وما رأته منها يجعلها تعتقد أن وراء مظهر تلك الفتاة طباعاً سيئة.

نظرت إلى ما حولها في المطبخ الذي عاد نظيفاً. لن تسمح بالاعتقاد بأنها أقل حباً بالأعمال المنزلية منه!

دخلت إلى غرفة الجلوس فجمعت منها البطانيتين والوسادة ثم رتبتها وأرجعتها إلى غرفته حيث وضعتها في أسفل سريره.. وبعد ذلك عادت لترتب غرفة الجلوس.

وفيما هي تقوم بالترتيب سمعت هدير محرك سيارة آتياً من بعيد، فدنت إلى النافذة وهي تقول بينها وبين نفسها إنه الميكانيكي.. كان لانس في الخارج يرفع غطاء محرك سيارته.. شاهدته يستقيم في وقفته تحت أشعة الشمس التي أظهرت اسوداد شعره البرّاق ثم رأته يضع يده فوق عينيه ليظللهما من الشمس ولكنه ما لبث أن انتفض واستدار راكضاً نحو الكوخ.

في اللحظة التالية، اقتحم غرفة الجلوس ليمسك بذراعها:

ـ بسرعة! يجب أن تختفي عن الأنظار!

غرزت عقبيها في الأرض، تقاومه وتسأل مرتابة: «لماذا؟ عمَّ تتحدث؟»

قال بصوت أجش نافد الصبر:

ـ شاهدت سيارة كلاريسا تقترب.. ليس هناك خطأ في هذا، سيارة رولز كبيرة لعينة على مثل هذه الطرقات، هي كديناصور في ساحة البيكاديللي.. الله أعلم كيف حصلت على العنوان.. إن أعطتها إياه كريستي. فسأقتلها.

شد قبضته على ذراعها: «تعالي! فستصل في أية لحظة، وإن شاهدتك هنا، فقد يقع الجحيم على رأسك؟».

* * *

٤ ـ لا تضحكي

قالت سيرينا بسخط وهي تحاول جذب نفسها منه:

ـ لن أختفي عن الأنظار كفأر يخاف من النور.. ولماذا أختبىء؟

ـ لأنها إن وجدتك هنا، في مثل هذه الساعة من الصباح سيكون السؤال الأول الذي يتبادر إلى ذهنها هو ماذا تفعلين أنت هنا؟ وعندما تعرف أنك أمضيت الليل كله، فسيتمنى كل منا لو أنه لم يولد. وكلاريسا شريرة.

صدقت سيرينا قوله، ولكنها سألت:

ـ ادّع أنني وصلت لتوي.

ـ وكيف وصلت إلى هنا؟

سمعت سيرينا صوت الرولز بوضوح. بدا هدير المحرك وكأنه فهد منطلق في أرض مشمسة بعد ليلة عاصفة. نظر لانس إليها، مكشراً عن أسنانه صامتاً.

ـ اللعنة عليك.. تحركي.. صدقيني أن المتاعب قادمة إن وجدتك هنا.

سألته بلهجة غاضبة مضحكة:

ـ وهل أنتما مخطوبان؟

قال باختصار: «أجل، طلبت منها الزواج».

تبادلا النظرات، هو كان عابساً وهي كانت شاحبة.. لم تحاول التحرك، ولم تكن تفكر، بل كانت تنظر إليه بعينين خضراوين قلقتين،

وكان يبادلها النظرات وكأن صمتها يقول له شيئاً أدلّ من الكلمات.

قال فجأة: «سأعيد رامسي إلى عمله، فهل تسمحين بالصعود إلى فوق والبقاء هناك حتى ترحل كلاريسا من هنا؟»

ارتدت سيرينا على عقبيها راكضة.. قد يصدق لانس أنها كانت واقفة في مكانها لابتزازه.. ولكنها لم تكن واقفة لهذا السبب بل غمرها إحساس عامر بغيرة بدائية غريبة.. وهو إحساس مجنون، لا تستطيع تفسيره حتى لنفسها.. فهي لا تكاد تعرف هذا الرجل.. وليس من شأنها إطلاقاً إن أراد الزواج بكلاريسا أم بغيرها.. إنها لا تحبه.. بل كيف تحبه؟ ولكنها مع ذلك لا تعرف ماذا دهاها إذ لم يسبق لها أن شعرت بمثل هذا الإحساس الخاص العنيف.. فهذا الألم الملتوي كحد السكين في أعماقها هو الغيرة. وفيما كانت تدخل إلى غرفة النوم في الأعلى شدت يديها إلى جانبيها لتقاوم هذا الإحساس.

كانت الرولز قد توقفت في الخارج حال وصولها إلى النافذة. شاهدت لانس يتحدث إلى كلاريسا التي يرافقها والدها.

تناهى صوته إليها: «كيف استطعتما اللحاق بي إلى هنا».

صوته خفيض إنما فيه غضب كامن لم تشعر به كلاريسا التي ردت:

ـ لدينا مصادرنا السريّة، كنت أموت شوقاً إلى رؤية مخبأك الصغير.. ماذا تفعل هنا بحق الله؟ يا له من جحر ميت.. بعيد أميالاً عن اللامكان.. ويا له من كوخ صغير! يبدو لي أن لا مكان فيه لتلعب قطة.. حسبتك تقيم فيه طقوساً معربدة، منذ كنت متكتماً بشأنه؟ أفيه نساء تخبئهن عني؟

رد لانس ببرود: «لدي مجهر هنا».

ارتجفت كلاريسا وشدت سترة الفرو حول عنقها:

ـ ألن تدعونا إلى الدخول حبيبي؟ الطقس بارد هنا.

ـ طبعاً.. سأصنع لكما القهوة.. ثم تخبراني كيف عرفتما العنوان.

ارتدّ عائداً إلى الكوخ قائلاً: «هل وضعتماني تحت المراقبة؟».

سمعت سيرينا صرير الباب الأمامي ثم صوت أقدام..

قال وايت هوارد بصوت عميق راعد:

- أصاب بالخوف من الاحتجاز في مكان كهذا.. كم غرفة فيه؟

دخل الجميع إلى المطبخ ثم سمعت صرير الباب وراءهم. ابتعدت عن النافذة لتجلس على مقعد قرب السرير.. هل كانت كريستي ريڤز تعرف العنوان طوال الوقت وأعطته لكلاريسا؟

لكن، إن كانت تعرفه فلماذا كذبت؟ لماذا أقنعت سيرينا بالاختباء في سيارة لانس، فيما هي قادرة على إعطائها إيّاه؟.

تجعد جبين سيرينا بالشك والريبة.. الأمر غامض ولا تفسير له فهي لا تفهم ما دفع كريستي للكذب عليها. ولكن، ربما تكهن لانس في محله، ربما استأجرت من يتعقبه إلى هنا.

يا الله! احمرّت سيرينا.. ماذا لو شاهدها الذي لحق به تخرج من سيارته؟ ولكن، لم يكن هناك كائن حي على مرمى النظر. تذكرت عندما وقفت خارج الكوخ، تحدق إلى ما حولها بدون أن ترى أو تسمع شيئاً غير عويل الريح بين الأشجار وهدير أمواج البحر.

فجأة سمعت باب المطبخ ينفتح تعقبه جلبة الأصوات ثانية. تسمّرت في مكانها مصغية، أين يذهبون؟ هل تمكن لانس من إقناعهما بالرحيل؟

سمعت لانس يقول بصوت مرتفع:

- سأصعد لأرى ما إذا كان كل شيء مرتباً.. لن تجدي الكثير فوق.. فليس هناك إلا غرفة نومي وغرفة العمل.

لاحظت سيرينا نبرة السخط في صوته فنظرت حول الغرفة يائسة.. أين بمقدورها أن تختبيء؟

سمعت كلاريسا تقول بإصرار: «لا.. أريد أن أراها كما هي بالضبط».

سمعتهما يصعدان، وسمعت السلم الخشبي يقرقع. تحب النساء النظر إلى مطبخ وحمام الآخرين..

تنهدت متوترة ثم انبطحت وتدحرجت إلى تحت السرير. شعرت وكأنها تمثل في مسرحية فرنسية هزلية.. يجب أن يخفيها الغطاء العريض المتدلي عن الجانبين هذا إذا لم تنحن كلاريسا لتنظر تحت السرير، وهذا ما لن تفعله ما دام موجوداً معها.

ما هي إلا لحظة من اختبائها حتى انفتح الباب على مصراعيه وسمعت كلاريسا تضحك قائلة:

- إنها غرفة خانقة حبيبي!

كانت ضحكتها مزيفة كابتساماتها..

- يبدو واضحاً أن رجلاً اختار الأثاث.. يا لها من نافذة صغيرة غير أنيقة.. إن مثل هذه الغرف قابضة للنفس. سقف منخفض، لكنك تحافظ على نظافتها وترتيبها. أيقوم بالتنظيف أحد أفراد القرية؟ لا شك أنّ الغبار يعشعش في هذه اللوحات بسرعة. آه!.. أعتقد أنك رسمتها؟ ما أبرعك!

تمكنت سيرينا من خلال الفجوة ما بين الغطاء والسجادة رؤية حذاء كلاريسا الأبيض، كانت واقفة على بعد إنشات منها.. حاولت سيرينا التنفس بصمت وتضرعت إلى الله حتى لا تعطس أو تسعل.

قالت كلاريس ثانية:

- أنت رائع فعلاً.. يجب أن تتجه قريباً إلى الرسم الحقيقي، هذه الرسمات جيدة، ولكن لا أحد يهتم برسم الطيور، أعني أن أي شخص قادر على رسمها. أليس كذلك؟ يجب أن ترسم أشخاصاً. لماذا لا أقف أمامك لترسمني؟ واثقة بأنك سترسم صورة رائعة لي، سيشتريها «دادي»!

قال لانس بلهجة حادة:

- لا أظنني مستعداً في الوقت الراهن للانتقال إلى رسم الأشخاص..

- لا تكن متواضعاً حبيبي! يمكنك ذلك. تبدو متوتراً.. فهل أنت

منتظر أحد؟

بدا لانس شديد التوتر.. وكيف لا يكون متوتراً، فلا شك إنه مرتقب خوفاً من أن تقرر سيرينا فجأة أن تظهر، وتفسد له كل شيء.. وكادت تفعل ولكنها ظلت حيث هي تسترق السمع رغماً عن إرادتها، تسترق السمع إلى كلاريس التي ضحكت بعذوبة بعدما تمتم لانس بصوت منخفض:

ـ أجل.. بالطبع.

ـ لقد كلمت «دادي» وهو يساندك فالفكرة تعجبه.

جلست كلاريسا فجأة فوق السرير، فأجفلت سيرينا لانخفاض الرفاصات فوقها.

قالت كلاريس بصوت أجش: «تعال اجلس إلى جانبي».

ـ سيشعر والدك بالسأم. أما يجب علينا أن ننزل إليه؟

شاهدت سيرينا حذاء الفتاة يرتمي فوق السجادة، ثم تداعت الرفاصات مجدداً.. يا الله!.. إنها تتمدد على السرير! وامتقع وجهها بشدة لأنها تصورت ما قد يحدث.

قالت كلاريس: «سخيف... سيعرف دادي ماذا نفعل.. أنت تبدو مثيراً جداً في هذه الكنزة.. تعال عانقني وإلا غضبت».

وضعت سيرينا يدها فوق فمها، وهي تحس بضحك هستيري يحاول دفع طريقه إلى الخارج.. ودّت لو ترى وجه لانس الذي يعرف أنها تصغي إلى كل ما يجري، ولا شك في أنه يتمنى لو تكون في الجهة الأخرى من العالم.. سمعته يتحرك ببطء، ثم دوى صدى قبلة دامت طويلاً أو هذا ما شعرت به.

همست كلاريسا:

ـ ما بالك؟ أنسيها قبلة؟ هل أنت غاضب لأنني وجدت مخبأك؟

سألها بسرعة: «وكيف وجدته؟»

ـ لن أقول.. لست الوحيد القادر على أن تكون كتوماً.. لقد ثارت

ريبتي عندما واظبت على الاختفاء في العطلات رافضاً أن تقول لي إلى أين؟ ظننتك تصاحب فتاة أخرى، وما كنت لأقبل بالخطوبة قبل أن أتأكد من أنك لا تخدعني.

قال لانس ببرود:

ـ قلت لك إنني أقصد هذا المكان بغية العمل على انفراد.

ـ أجل حبيبي.. قلت لي هذا.. ولكن، كيف لي أن أعرف أنك لا تكذب؟

ـ كان عليك الوثوق بي.

ضحكت: «أنت غاضب.. لا تعبس في وجهي هكذا.. تحدثت مع «دادي» الذي وافق أن نتحقق منك..»

ارتفع صوته عدة طبقات:

ـ تتحققان مني؟ وهل وضعتماني تحت المراقبة؟

تحرك ثقل كلاريسا فوق السرير. رأت سيرينا انحناءة جسدها فوق الرفاصات وانحناءة أخرى أعمق. فلانس أثقل وزناً منها.. ردت الشقراء بسرعة:

ـ لا تجعل من هذا قضية كبيرة.. لم أشأ إلا السؤال.. أوه.. لانس.. كن منطقياً. ماذا كنت ستظن بي في ما لو ذهبت في كل عطلة إلى مكان ناء لا يعرفه أحد؟ ألن تشكّ فيّ؟

فكرت سيرينا أنها على حق.. ثم سمعت لانس يقول: «أظن أنه من الأفضل لنا العودة إلى والدك».

واتجه إلى الباب، كان صوته عميقاً، قاسياً، أجشّ.. عرفت كلاريسا أنه غاضب فنهضت هي أيضاً ودست قدميها في الحذاء الأبيض قبل أن تلحق به.

ـ أنا آسفة إن جرحت مشاعرك بعدم ثقتي بك لانس.. لا يمكن لومي، معروف أنك زير نساء. لا اعتراض عندي على ماضيك فلا أتوقع أن أكون المرأة الأولى في حياتك، وأنت لا تتوقع أن تكون الأول في

حياتي. لكلٍ منا خبرته.. أليس كذلك؟ لكن الزواج شيء آخر.. وربما أكون رجعية التفكير، غير أنني أتوقع أن أكون الوحيدة في حياة زوجي!

تلاشى صوتها وهما ينزلان الدرج. انتظرت سيرينا حتى ابتعدا ثم خرجت من تحت السرير. كانت تنورتها مغبرة فانحنت تنفضها متوردة الوجه.

فهمت الآن لماذا جعلها لانس تختبيء، فلو وجدتها كلاريسا لما أصغت إلى أي تفسير. وعندما فكرت سيرينا في ما كاد يقوله للفتاة الأخرى، أدركت كم سيكون كلامه ضعيفاً وغير مقنع. قد لا تحب كلاريسا هوارد كثيراً، ولكنها تعترف أن الحق معها، فلا شك أن تكتم لانس يبدو شاذاً.

تجنبت النظر إلى السرير، واتجهت إلى النافذة. ماذا ستفعل الآن؟ حتام ستبقى كلاريس وأبوها هنا؟

لن أبقى محجوزة هنا ساعات.. ولكن، كيف ستخرج بدون أن يراها أحد؟

صاح طير نورس فوق المرتفع الصخري، فشهقت سيرينا. إن أعصابها محطمة. فقد جعل مجرد التفكير في استراقها السمع على الأحبة وجهها يحترق مجدداً.. رفعت يديها إلى وجهها غاضبة من نفسها.

هل يحب لانس حقاً هذه الفتاة؟ برز السؤال قبل أن تخرسه. التفتت فلمحت صورتها في المرآة على الطرف الآخر من الغرفة. بدا لها وجهها غير مألوف.. فبشرتها متوردة وعيناها متعبتان. ما شاهدته أقلقها كثيراً حتى شعرت برغبة في الركض إلى الأسفل ومنه إلى الخارج حيث هواء الربيع النقي.. ليتها لم تأت إلى هنا وليتها لم تصغ إلى نصيحة كريستي ريفز.

استندت إلى النافذة، تتوق كعصفور مسجون إلى الهرب.. لقد مضت بضع ساعات منذ دخلت إلى هذا الكوخ ولكنها تحس وكأنها في

هذا الوقت القصير، قد عانت من تغيير مدمر ومرت بشيء متفجر يشبه تجارب بندكت.

جعلتها الأصوات المتناهية من الأسفل تتوقف عن تأملاتها الذاتية الغاضبة فنظرت بسرعة وإذا بها ترى وايت هوارد يتهادى في مشيته نحو الرولز البيضاء وابنته خلفه.

ارتدت بعيداً عن الأنظار قبل أن ترى لانس.. فهي لا تريد أن يراها أحد الآن خاصة بعدما تجشمت عناء الاختباء. سمعت همهمتهم ولكنها لم تفهم ما كان يقال.. كانت لهجة لانس عميقة نظة فظنت سيرينا أن في صوت كلاريسا بعض محاولات الإرضاء..

ماذا لو ذهب لانس معهما؟ انتفضت سيرينا قلقة فعندئذ ستبقى محجوزة هنا إلا إذا سارت نحو أقرب قرية، وهذا يقتضي ساعات من السير.

شكّت للمرة الأولى في كلام لانس. أيبعد الكوخ حقاً أميالاً عن القرية.. ولكن من الواضح أنه يقول الحقيقة فهذا ما أشارت إليه كلاريسا وأبوها. ألم يبديا تذمرهما من بعد المكان؟ الغريب أنهما لم يبديا أقل إعجاب بمخبأ لانس السري، وهذا ما جعل سيرينا حائرة، فهي رغم عزلة المكان لم تستطع سوى الإعجاب بالهدوء وبالجمال المحدق بالكوخ.

عندما انطلقت الرولز خاطرت بإلقاء نظرة إلى خارج النافذة متسائلة عما إذا رافقهما ولكنها وجدته واقفاً في الممر، شعره الأسود أشعث وكتفاه هابطتان أمام الريح، ويداه في جيبيه.

تأملته سيرينا مشفقة فقد بدا مرهقاً. تعلمت من أخوتها كيف يفكر الرجل. إن أي أخ من أخوتها يفضل الموت على أن يمر بما مرّ به في غرفة النوم منذ بضع دقائق، ولكن هل لانس ستوراي رجل غير عادي وهل الإحراج لا يهمه.. ولكنه على الأرجح لا يتطلع إلى مواجهتها مرة أخرى بعدما سمعته..

نزلت إلى الأسفل وهناك رأت لانس يدخل من الباب الأمامي. تلاقت عيونهما فرأت وجهه متجهماً..

قال بفظاظة: «تمكنت مدة خمس سنوات من إخفاء عنوان هذا المكان.. ثم، فجأة يبرز إليه الناس من حيث لا أعلم.. ربما عليّ أن أبيعه قبل أن تصل أفواج السياح مطالبين بجولة سياحية».

كانت سيرينا قد صممت على أن تكون دبلوماسية ولكن عدوانيته أغضبتها، فردت صائحة:

ـ لا تصرخ في وجهي! وما شأني إن اقتفت خطيبتك أثرك.. على أي حال، أكنت تظن نفسك قادراً على منعها من اكتشاف أمر هذا المكان إلى الأبد؟ حتى بعد زواجكما؟

بدا مصدوماً، فعلى ما يبدو أن هذه الفكرة لم تخطر له على بال وكأنه لم يتصور أن زوجته لن تسمح له بأن يكون له مخبأ سري، لا يدعوها إليه أبداً..

قالت: «أنت لا تعرف شيئاً عن النساء».

شخر ساخراً: «ولكنني أعرف شيئاً عن الابتزاز».

ـ لم أبتزك.. أنت عرضت عليّ ردّ بتدكت إلى عمله إن اختبأت.

ـ لولا اختباؤك في السيارة، لما كان هناك حاجة إلى اختبائك!

ردت ببرود:

ـ لو كانت خطيبتك تثق بك لأخبرناها بحقيقة وجودي هنا.

قال بغضب شديد: «لن تصدق أية امرأة ما سنقوله».

صمتت سيرينا تفكر في هذا. والحق أنه أصاب. هل كانت ستصدقه لو كانت محل كلاريسا؟

نظر إليها وفمه خط مستقيم، ثم سأل:

ـ وهذا ما يذكرني.. أين كنت مختبئة؟

طأطأت متوردة الوجه وأهدابها كمروحة سوداء على خديها:

ـ تحت السرير.

ساد صمت ضج بالعنف، ونظرت إليه من بين رموشها، وثغرها يرتجف بضحكة صامتة.

ـ اللعنة عليك!

اصطبغ وجهه بالأحمر.. فانسلت منها ضحكة، عندئذ خطا لانس خطوتين نحوها فأمسك بكتفيها وراح يهزها بعنف:

ـ لا تضحكي علي أيتها الساحرة الصغيرة!

تناثرت خصلات شعرها الحمراء حول وجهها برّاقة نارية، حية، راحت تتماوج على يديه وذراعيه وهو يهزها.. ارتفعت أهدابها مجدداً، فأظهرت له عينان خضراوان ممازحتان مغرورقتان بالضحك، حدق إليهما بثبات ثم توقف عن هزها، فوقفت بلا حراك، فجأة شعرت بالخوف من شيء ما في وجهه القاسي.. أحست بالدوار، وكأنها توقفت لتوها عن الدوران مع الموسيقى مرات ومرات. وطفقت أذناها تضجان بالصدى، وانفرجت شفتاها بشهقة صامتة.

انتقلت عينا لانس من عينيها الخضراوين إلى أنفها الرائع التكوين فشفتيها الورديتين المرتعشتين البادية فيهما مشاعرها كلها.. فجأة راح إبهامه يطوف على خطوط تقاسيم وجهها الجميل أما هي فنظرت إليه، غير قادرة على الخلاص.. لقد تلاشى غضبه، وثقل جفناه فوق عينين ناعستين، فيهما شوق ودفء ليلة استوائية جميلة.

انحنى ببطء شديد فارتفعت عُنقها بحركة غريزية. أغمضت عينيها لتركز على عناقه البطيء الذي جعل كل شيء حولها يتوارى بعيداً بعيداً. شعرت بأنها كانت تسير إلى هذه اللحظة منذ ولادتها.. مع ذلك أحست بالصدمة والألفة اللتين لشروق الشمس، أو للضحك.. فالشروق جديد دائماً مهما تكرر..

ارتد لانس وهو يسحب أنفاساً مضطربة فتحررت منه ولكنها شعرت بالبرد والارتعاش يرافقان هذه الحرية.. نظرت إليه بعينين وجلتين.. هل عرف ما حدث لها الآن؟ هل أدرك مدى تأثير عناقه فيها؟

قال بفظاظة وكأنه يتوقع صفعة أو البدء بالصراخ:

- أنت السبب.

انتفضت.. هل هذا صحيح؟ هل توسلت إليه عيناي ليعانقني؟ تصاعد اللون الأحمر تحت بشرتها، وتصاعد غضبها معه، فالغضب آخر المشاعر المتوفرة لها في هذه اللحظة.

- هذا إذا كنت تحب أن تعتقد هذا!

- سيعلمك عنافي هذا عدم الضحك من رجل! لم أقصد أن أضمك بين ذراعي. أوشكت على صفعك ولكن في اللحظة الأخيرة بدا العناق فكرة أفضل من الضرب.

بدا مرتبكاً، وكأنه مذهول بما حصل أكثر منها والأهم من ذلك أنه لم يكن يفهم ما أصابها تمتمت سيرينا كاذبة: «أفضل لو صفعتني».

من الواضح أنه لم يجد في عناقهما تلك الإثارة التي شعرت بها. فالقصد من عناقه لها هو معاقبتها على ضحكها عليه.. ألم تقل كلاريسا هوارد إنه زير نساء؟ كم عدد من عانقهن هكذا؟.. صرت على أسنانها ترفض المعرفة، وقالت بلؤم:

- من حظك أن خطيبتك لم تدخل إلى هنا الآن.

رأته ينتفض.

سمعا صوت محرك سيارة آتية من بعيد، أطلق لانس لعنة.

- يا الله! من الآن؟

تبادلا النظرات فإذا عيونهما تتبادل الفكرة نفسها.. هل عادت كلاريسا؟

قالت سيرينا بغضب: «لن أختبىء تحت السرير ثانية!»

تقدم لانس إلى الباب لينظر إلى الخارج فتأملته وما هي إلا لحظة حتى رأت جسده يسترخي فقد رأى أن السيارة المقتربة ليست سيارة كلاريسا.

- لا بأس.. إنها شاحنة الكراج.. لقد وصل الميكانيكي لإصلاح

سيارتي.

خرج، ثم أقفل الباب خلفه.. عندئذ دخلت سيرينا إلى المطبخ لتعدّ لنفسها فنجان قهوة هي بحاجة ماسة إليه في هذا الوقت. جلست لتحتسيه على المائدة بعد لحظات، تحدق من نافذة المطبخ إلى أزهار ذهبية تنمو بكثرة في الحديقة، وتكاد تبلغ أطراف الصخور، لأن لون وريقاتها الخضراء يتهي مع حدود السماء. لم تكن ترَ الأمواج ولكنها كانت تسمع صوتها وتنهداتها البطيئة وتحس بتلاعبها بالحصى الذي يملأ الشاطىء.. حامت بضعة طيور نورس زاعقة زعقاتها الحادة، قبل أن تغوص إلى الأسفل.

انتفضت عندما سمعت دوي الباب الأمامي.. بعد لحظة دخل لانس إلى المطبخ، وحاجباه مقطبان، فسألت خائفة من عبوسه:

- ألم يستطع إصلاحها؟

توقف أمامها: «بل أصلحها.. كان الأمر سهلاً.. أخبريني هل لديك سيارة؟».

ردت ببطء: «أجل.. لكنني ركبت القطار إلى لندن.. وإلا..»

قاطعها: «أتعرفين الكثير عن المحركات؟»

- لا، لا أعرف الكثير. أعرف القيادة ولكنني آخذها إلى الكاراج إذا أصابها شيء إلا إذا كان أحد أشقائي في المنزل واستطاع إصلاحها.

رد بمرارة: «يا لهما من عينين نجلاوين بريئتين تدعوان المرء إلى تصديقهما.. يا إلهي كدت تقنعينني، وأنا أعرف أنك كاذبة.. ما هي الفكرة الكبرى؟ هل قصدك عدم الرحيل والمبيت هنا؟ ثم ماذا؟ هل كان راسي سيقتحم المكان ويتهمني بإغوائك؟».

ضاقت عيناه ثم أردف:

- لا.. بالطبع لا.. أنت من أخبرت كلاريسا بأمر هذا المكان، أليس كذلك؟ لم تكوني بحاجة للاختباء في سيارتي، فأنت تعرفين العنوان، وأعطيتها إياه بالأمس.. أنت لست مجرد متنهزة فرص

فحسب.. بل أنت مبتزة. لقد وضعت خطتك سابقاً، أردت أن تصل كلاريسا، وتضبطنا معاً، فأضطر أنا لحظتئذ إلى قطع وعد لأعيد رامسي إلى عمله مقابل تخليصي من التورط مع كلاريسا!

نظرت سيرينا إليه، فاغرة فاها، مشدوهة، وعندما استردت أنفاسها قالت: «أنت مجنون!»

ـ لا شك أنني مجنون..

رفع يديه إلى عنقها، ثم أنزلهما بحدة قائلاً بسخرية:

ـ لا.. فحينما لمستك أوقعت نفسي في متاعب من نوع آخر.. لن أرتكب الغلطة نفسها ثانية! ظننتك مزعجة بسيطة طيبة النية! ولكنك أخطر من ذلك.. ألست هكذا؟ أيتها المتآمرة، الباردة الأعصاب..

قاطعته صائحة: «هاي! أنا لا أعرف عما تتكلم.. لكن..»

ـ بالطبع لا تعرفين.

تواقحت عيناه وهما تطوفان بها.. بدأت سيرينا تحس بتوتر فعلي.. لماذا ينظر إليها هكذا؟ ما الذي حدث حتى أصبح غريباً عدوانياً مرة أخرى؟

سألها بوقاحة: «ركبت بعض المجازفة.. أليس كذلك؟ ماذا لو كنت أقل تهذيباً ليلة أمس؟ لولا تهذيبي لاضطررت إلى تحمل أكثر من قضاء ليلة على الأريكة في غرفة الجلوس، ولكن هل كنت مستعدة لفعل أي شيء في سبيل إرجاع رامسي إلى عمله؟»

راقبته حائرة، كان وجهه متناسقاً كتمثال إفريقي.. عظام خديه بارزتين، زاوية فمه حادة عند الذقن، فمه كثيب متجهم تشوبه بعض القسوة، وخط الفك متصلب وكأنه يرغب في ضربها..

سأل محتقراً إياها:

ـ أكان يعرف بخطتك؟ أكان مستعداً في سبيل العودة إلى عمله أن يتركك تقضين الليلة معي؟

قالت وهي تكافح للاحتفاظ بهدوئها:

ـ هلا أخبرتني عم تتحدث؟ بماذا تتهمني؟

نظر إليها بقسوة وشفتاه جافتان:

ـ حسن جداً.. تابعي تمثيل دور البراءة.. ولكنك تعرفين عما أتكلم.. عندما بدأ الميكانيكي بفحص السيارة، فعل ما كان يجب أن أفعل.. انتزع غطاء موزع الكهرباء فوجد فوراً أن فحمة التوزيع الصغيرة مفقودة..

ـ وما هي فحمة التوزيع؟

قال لانس شيئاً جعلها تبيضّ شحوباً.. لم ينعتها أحد بهذا النعت من قبل. ارتدّ على عقبيه وسار في الغرفة ثم عاد مجدداً، بقفزة حادة، وكأنه يحاول السيطرة على غضبه.. راقبته سيرينا بارتباك وهو يواجهها. كانت فتحات أنفه متسعتين وعيناه ضيقتين، وفمه مضموماً.

بعد صمت متوتر صغير قال بإيجاز حاد: «لا داعي للكذب».

ـ أنا لا..

صاح: «يا الله..!»

ثم سحب نفساً عميقاً وقال:

ـ آنسة برنتيس.. ما إن عرفت أن فحمة الموزع ناقصة حتى تيقنت أنه عمل تخريبي.. يستحيل أن تقع الفحمة وحدها.. على أحد أن يفتح الموزع ثم ينتزعها.. فمن هو القادر على ذلك سواك؟ أنت المشتبه الوحيد.

حارت سيرينا، ولم تقل شيئاً، ثم ابتسم ببرود:

ـ لقد خططت لكل شيء بذكاء ونفذته ببراعة.. أمر ذكي آنسة برنتيس.. مختصر وبسيط. انتظرت حتى نمت، ثم تسللت إلى الخارج فانتزعت غطاء الموزع، وأبعدت الفحمة.. ماذا فعلت بها على فكرة؟ رميتها فوق السياج على العشب المرتفع؟ على أي حال، بعد دقيقتين عدت إلى الداخل لتنامي على الأريكة وكأن شيئاً لم يكن.. أعتقد أنك كنت مستيقظة عندما جئت أوقظك هذا الصباح. لقد خدعتني.. كنت

مستلقية، وكأنك ملاك نائم.

برقت عيناها بتوتر بسبب الصورة التي رسمها لها..

ضحك لانس بغضب.

ـ أكان هذا فخاً آخر موضباً لي؟ أكان من المفترض بك أن تغويني للبقاء معك؟

راقب اللون القرمزي يتصاعد إلى وجهها غير مُشفقٍ لها وقال بحدة:

ـ حسناً كدت أقع فيه.. كنت غبياً بما يكفي لأنني ترددت قليلاً قبل الخروج، بل كنت أغبى إنسان. لقد كرهت نفسي لما فعلته عندما رأيتك مستلقية.. والأنكى أنني لم أنزعج كثيراً حينما لم تدُر السيارة.. لقد أعجبت بك عظيم الإعجاب بسبب ولائك لراسي وتكبدك هذه المشقة كلها لإنقاذ عمله.. ولكنني ساعتئذ لم أكن أعرف إلى أي مدى أنت قادرة على المخاطرة. صحيح؟

ارتدت أمام وحشية السؤال الأخير.

أردف: «لا.. لا تخافي.. لن أعضك.. مع أنني أرغب في هذا.. لا شيء على وجه هذه البسيطة قادر على دفعي للاقتراب منك.. فأنت خطيرة جداً آنسة برنتيس.. ما إن يعود الميكانيكي ومعه الفحمة الجديدة حتى أقلك إلى بلدتك. لا، بل إلى باب منزلك وحتى ذلك الوقت، ابتعدي عن نظري».

ابتعد عنها ثم سمعته يصفق الباب خلفه.. أما هي فجلست على أقرب مقعد وساقاها مرتجفتان. لم تستطع التفكير السوي للحظات.. رأسها دائخ ومرتبك.. ثم تصاعد سؤال واحد إلى رأسها.. تعرف أنها لم تنتزع الفحمة من الموزع.. فمن أقدم على ذلك؟

* * *

٥ ـ رجال أغبياء

بعد نصف ساعة من ذلك ابتعدا عن الكوخ بصمت كئيب قطعته سيرينا بسرعة عندما رأت أنهما يقتربان من ضواحي قرية، على بعد أميال..

ـ أنزلني في القرية إذا كنت..

قال باقتضاب: «سأقلك إلى باب دارك.. أريد أن أتأكد من عدم رؤيتك بعد ذلك».

غاصت في الصمت مجدداً وراحت تنظر إلى الخارج من النافذة الجانبية، تراقب الأراضي الريفية المسطحة التي تمر بسرعة.. ماذا سيفعل بشأن بندكت؟ لم يفد تدخلها قضية بندكت كثيراً.. ولكان من الأفضل لو أنها امتنعت عن مساعدته.. ولكن نيتها كانت حسنة وليست الغلطة غلطتها إن ساءت الأمور بطريقة خاطئة.

من نزع فحمة الموزع إذن؟ انعقد حاجباها وهي تفكر في أحداث اليوم السابق.. كانت ولانس وحدهما تماماً في الكوخ وليس هناك من يعرف بأنها في كوخه.

إلا كريستي.. طبعاً.. واتسعت عيناها.. هل كريستي وراء كل هذا؟ ولكن ذلك يعني أن تلحق بهما إلى الكوخ ومن ثمَّ تتسلل إلى الكاراج لتنتزع الفحمة ثم تقفل راجعة من حيث أتت.

تحركت نافذة الصبر، عابسة.. لا.. هذا غير معقول.. فكرة سخيفة.. لماذا تفعل كريستي هذا؟ ما هو دافعها؟

كان لانس ستوراي يقود بسرعة، بسرعة فائقة، ينعطف بسرعة، يدفع بالوحل إلى جوانب الطرقات الريفية.. وكانت إطاراته تهس فوق الحصى المتجمع على الطريق.. نظرت إليه بوجل ولكنها لم تجرؤ على قول شيء.. كان ينظر إلى الأمام وجسده الطويل الرشيق متوتر تحت كنزة سوداء.. لقد حذرتها غريزتها منه وطلبت منها أن تمسك لسانها. ولكنها أحست بالطمأنينة لأن يديه القويتين تسيطران على المقود.

أدار رأسه فجأة، ونظر إليها بحدة: «حسناً؟»

- ماذا؟

- كنت ستقولين شيئاً؟

- أنا؟

- لا تعبثي معي آنسة برنتيس.. هيا تكلمي.

ضحك ضحكة خالية من المرح ثم أردف: «أخالني أعرف ما يدور في هذا الرأس.. تريدين معرفة ماذا سأفعل برامسي.. أليس كذلك؟»

سحبت نفساً عميقاً: «أعتقد أنني..»

- أجل.. هذا ما ظننته.. بدأت أقرأك ككتاب مفتوح.

كان في الطريقة التي قال فيها هذه الكلمات رضى وغرور.. وكان بمقدور ابتسامته أن تخثر الحليب.. انعطف مرة أخرى فتمسكت بمقعدها لأنها شعرت بأن السيارة تسير على إطارين فقط.

- حسناً.. لم أقرر شيئاً حتى الآن. كدت أرفض أن يعود إلى وظيفته ولو على جثتي، وأردت أن تنضمي إليه بالبطالة.. إنما كان ذلك قبل أن أدرك خداعك. أعرف أن خداعك لم ينتهِ وأنك تنتظرين حتى أهدأ لتطلقي الطلقة القاتلة.

راقبته بحذر.. ماذا الآن؟ أهذا ما كان يفكر فيه وهو يقود سيارته وكأنه هارب من الجحيم؟

نظر إليها بحدة مرة أخرى، في عينيه وميض متوحش.

- هيا آنسة برنتيس.. يعرف كلانا ما هو القادم تالياً.. أليس

كذلك؟ كنت بطيئاً في الفهم.. ظننت عندما اكتشفت أمر السيارة أن ما حدث أفسد لعبتك.. ولكننا بالطبع ما نزال في الجولة الأولى. عرفت أنني سأكتشف مسألة فحمة الموزع ولكن هذا لم يزعجك لأنني ما زلت عالقاً في فخك.. لو طردت رامسي، لسعيت إلى أن تعرف كلاريسا أنك أمضيت الليل معي في الكوخ.

ضرب يده بشدة على المقود، فجنحت السيارة بعنف. صاحت سبرينا من الصدمة.. ولكنه أضاف:

- يا الله! بل أنت قادرة على تكرار كل الأشياء التي قالتها في غرفة النوم ثم تذكرين لها أنك اختبأت تحت السرير.. كان يجب أن أخنقك!

تقوقعت في مقعدها أما هو فراح يراقبها، ثم ضحك بمرارة:

- لا.. لا تقلقي.. لن أفعل شيئاً غبياً إلى هذا الحد. لدي ما يكفيني من مشاكل بسببك.

اندفعت شاحنة من المفرق أمامهما، فشهقت سبرينا رعباً: «انتبه للطريق».

تجاوز لانس الشاحنة بصعوبة ثم تبعهما صوت بوقها.. أعادت الصدمة لانس إلى صمته المتجهم ثانية.. ولم يقل شيئاً حتى كادا يصلان إلى بلاكستون..

عاد إلى التحدث ثانية في ضواحي البلدة الريفية الصغيرة وفي هذه المرة كان صوته أهدأ وتيرة.

- أعتقد أن من الأفضل لي مواجهة الوقائع.. ليس أمامي خيار كبير. سنعقد صفقة آنسة برنتيس.. من الآن وصاعداً فليكن رامسي المتحدث باسمه.. فليبق في المختبر، وإذا قبل ذلك أريد أن يأخذ إجازة مدة أسبوعين وذلك حتى عودتي من بروكسل، سأسافر إلى هناك غداً فأنا غير قادر على التراجع.. وعلى رامسي أن ينتظر حتى عودتي. اقترحت أن يقوم رامسي بالجانب النظري من الأبحاث على أن يقوم غيره بالجانب التنفيذي.. وقد يكون اقتراحك أحكم حل. ولكن عليَّ أولاً

مناقشة المشروع معه، لأتأكد من أن الفكرة مجدية.

أعاد بصره إلى الطريق العريض المحاط بالأشجار حيث تعيش سيرينا وقال عندما اقترب من أبواب منزلها:

- وصلنا.. أليس كذلك؟

- وكيف عرفت؟

- ألا تذكرين أنني عشت في بلاكستون؟ وأنني أعرف البلدة عن ظهر قلب.

أوقف السيارة وكلتا يديه على المقود، يتطلع إلى المنزل الجميل المستقل.. وكانت شجرة صفصاف تنمو في الحديقة فتخفي بعض النوافذ وأغصانها الوارفة تملأ الجو برائحة عبقة..

قال ساخراً: «مكان مثالي».

استردت شجاعتها، فهو أقل عنفاً الآن:

- اسمع.. لم أنتزع فحمة الموزع من سيارتك.

- من فعل هذا إذن؟

- لا أدري.. لست الفاعلة. هذا كل ما أستطيع قوله. لا أعرف فحمة الموزع من شمعة الإشعال.. صدقني سيد ستوراي.. لم أفعل هذا.

- ومن لديه الدافع غيرك؟

هزت رأسها ببطء.. فسأل: «أهو رامسي؟»

- بالطبع لا.. فهو لا يعرف حتى أين كنت إذ لم يتسع لي الوقت لأبلغه بما أنوي فعله. يعرف أنني ذهبت إلى لندن لأقابلك، لكن..

- طلب منك أن تقنعيني؟

رأت فمه يلتوي بنفاد صبر، وازدراء واضح.. إنه يحتقر بندكت على ذلك فهو صنف مختلف من الرجال.. لا يمكن أن يطلب من امرأة التدخل لصالحه..

قالت: مدافعة «بندكت ليس بارعاً بالكلمات، ولا يمكنه التحدث

مع الناس».

- ألهذا يدفعك إلي أن تنوبي عنه لإنقاذه؟ لا تقولي لي إنه لم يخطر على باله أن أطلب شيئاً في المقابل!

نظر إليها بحدة وعيناه ساخرتان، وناظراه الأسودان يومضان ويأسران نظرتها المترددة. فقال:

- بدأت أحس أنني غبي لأنني لم أعقد صفقة معك ليلة أمس.. فهذا ما توقعته بشكل واضح، وما رغبتك في الاتصال برامسي ليصحبك إلى منزلك إلا خدعة.. تبدو هاتان العينان الخضراوان الكبيرتان بريئتين بحيث لم أفكر في أنك تنتظرين اقتراح بعض التبادل.

فتحت سيرينا الباب وكادت تتعثر في خروجها ثم قالت عن الرصيف بغضب:

- أقول لك للمرة الأخيرة إنني لم أكن أتوقع شيئاً من هذا.. ولم أنتزع شيئاً من سيارتك، ولم أكن أبتزك..

لم تنتظر الرد، بل ارتدت على عقبيها تسلك الطريق الداخلي القصير إلى منزلها، مخترقة طريقها عبر أغصان الصفصاف المتدلية التي كانت تختلط مع شعرها، وتمتد إليها كأصابع من عظام.

ناداها لانس ستوراي: «قولي لرامسي إنني سأقابله بعد أسبوعين على ألا يقترب من المختبر حتى أعود».

ما إن وصلت إلى الباب حتى انطلقت سيارته. ترددت قبل أن تدخل إلى المنزل إذ كيف ستشرح لأبويها تبكيرها في العودة من عطلتها من لندن فارغة اليدين؟ فهي لا تحمل شيئاً حتى الحقيبة التي حملتها معها، لقد وضعتها في مكتب الودائع في محطة القطارات الرئيسية وكانت تريد استعادتها بعد مقابلة لانس ستوراي، والمحطة لا تبعد سوى عشر دقائق بالتاكسي عن منزل أخيها ديوغ.

لا شك في أن ديوغ أو زوجته سوزي قد اتصلا بأبويها ليستفهما عن أسباب عدم حضورها وإن حصل ذلك فستقوم قائمة العائلة ولا ريب في

أن خيال أمها سيجنح خاصة وهي امرأة تميل إلى الدراما وتعتبر لندن مدينة تشوش الفكر حيث لا قانون يحكم شوارعها بعد الظلام. ستظن أن ابنتها ضائعة في ذلك الزحام الخطر، فيتملكها الخوف والقلق.

وجدت سيرينا مفتاحها بصعوبة فدسته في القفل، ولكن في تلك اللحظة، انفتح الباب فجأة، ونظر إليها أخوها كيري متسائلاً:

ـ أين كنت بحق الله؟ كنت وبندكت نتساءل كيف نخبر أمي وأبي أنك اختفيت عن وجه الأرض!

نظرت سيرينا خلفه تضم يديها: «هس.. ! أين هما؟»

نظر كيري إلى ساعته:

ـ يأكلان السندويشات الآن. وستطعم أمي البط، أما أبي فسيخلع حذاءه ليحرك أصابع قدميه.

تنفست الصعداء: «وهل خرجا ليصطادا السمك؟».

هز الأخ رأسه ضاحكاً: «وبقيا هناك طوال النهار.. وقبل أن تسألي.. لا.. لا يعرفان شيئاً عن عدم مبيتك عند ديوغ الذي اتصل بالأمس يسأل عما إذا كنت تظنين منزله مجرد فندق.. لقد تلقيت أنا المكالمة لأن أبي وأمي كانا نائمين.. تعرفين أنهما ينامان عندما يريدان الذهاب إلى الصيد في اليوم التالي.

تركها كيري تدخل، فاستدارت تراقبه يقفل الباب، وسألت:

ـ ولم تقل لهما؟

ـ لم أكن قد استيقظت عندما خرجا.. ولو أخبرتهما بعد عودتهما لشنقاني، أغرقاني، وقطعاني إرباً لأنني تأخرت في إعلامهما. وفي الحقيقة يا حبيبتي سيرينا أنني بدأت أقلق عليك.

جذبها من الردهة وأدخلها إلى المطبخ حيث كان بندكت يحضر حساء معلباً.. فاستدار وعيناه جاحظتان: «سيرينا».

قالت غاضبة وهي ترمي نفسها على كرسي:

ـ لا تنظر إليّ وكأنك رأيت وحش البحيرة.

قال بندكت بحرارة: «تسرني رؤيتك».

ـ يبدو سرورك لي رعباً.. هل لي ببعض الحساء؟. أكاد أموت جوعاً.

لقد تناولت فطوراً دسماً عند لانس ولكن ما مر بها منذ تناولت اللحم والفطر هذا الصباح وحتى الآن استنفذ طاقتها.

انتزع أخوها المحب أحد الأطباق بسرعة، وهرب به إلى كرسي قرب النافذة:

ـ هذا صحني، أطهُ لها طبقاً بندكت.

نظر بندكت بأسى إلى الحساء، ثم أعطى طبقه لسيرينا مضحياً وقال:

ـ خذي هذا.. سأطهو طبقاً آخر لي أنا.

نظر إليها وهي تحتسي حساء الطماطم:

ـ آه سيرينا!.. الحمد لله على عودتك! بدأت أظن..

قاطعه كيري بحبور: «ظننا أن لانس ستوراي اتخذك عبدة بيضاء له..»

ردت بمرارة: «لا أرى أن شعركما انتصب من الفكرة».

احتج بندكت: «ولكنني قلقت كثيراً».

قال كيري: «أما أنا فلقد أحسست بالأسى على لانس ستوراي، فأنا أعرفك أكثر من بندكت.. وقد تساءلت كيف ستفعلينها».

ـ أفعل ماذا؟

ـ كيف ستقتلينه.

نظر إلى سيرينا نظرة عادية.. إنّ لهما الشعر الأحمر نفسه ولون العينين ذاته أيضاً.. ولكن بنيته بالطبع تختلف، فقد نما جسده بفعل لعبة الكريكت والسكواش، وبفعل الألعاب الأخرى المخصصة للذكور. كيري مفتول العضلات متناسق الجسم ومرغوب جداً وقد عرفت ذلك من أقوال صديقاتها اللاتي تقن إلى الخروج معه منذ دخلت سيرينا إلى

المدرسة في السن الخامسة. لقد وجدت نفسها مشهورة على أنها شقيقة كيري الصغرى.. ولم تفهم قطّ السبب.. فهي تعرفه جيداً بحيث لا يشكل لها أي غموض أو سحر.

نقلت بصرها بسخط من أخيها إلى بندكت:

ـ حسناً.. لكل منكما شأن! ظننتما أن لانس ستوراي خطفني، ولكنكما لم تحركا ساكناً لإنقاذي؟ أكره فكرة الاعتماد على مساعدتكما في موقف حرج.

أنهى كيري الحساء، واستند إلى ظهر كرسيه وقدماه على النافذة وجسمه ممدد بكسل:

ـ نعلم أنك قادرة على معالجة الأمر يا فتاة.. نحن في عصر تحرر المرأة، كما أننا علمناك اللكم والضرب في الأماكن التي تؤلم. لا تدعي أننا لم نعلمك فنون الدفاع عن النفس الأساسية!

صاحت به سيرينا: «يجب أن أضربك حيث يؤلمك».

جلس كيري بحذر مستوياً مخافة أن تنفذ ما تقول.. أما بندكت فجرّ كرسياً لينظر إليها بحزن: «ماذا حدث؟ أين كنت؟»

ـ كنت مع لانس ستوراي طوال الليل.

لاحظت أن جحوظ عينيه تضاعف بصمت رهيب..

صاح كيري: «هاي.. أنت تمزحين.. أليس كذلك؟»

ـ لا.

أجفلتهما كلمتها اليتيمة التي لا تفصح عن شيء آخر، فتبادلا النظرات.. فاغري الفم.

ثم تقدم كيري بحنان، لينحني حتى مستوى عينيها، وأمسك بيدها يسأل: «ماذا جرى يا حبيبتي؟»

إن علاقتهما وطيدة وهي غير مبنية على الإشفاق، وكان بندكت فيها ثالثهما.. صفعته على يديه، ننظر إليه شذراً: «لا يجنحنّ تفكيرك، فليس الأمر كما تفكر».

شاهدت الراحة تطغى على وجه أخيها، ثم وقف، ليعود إلى مرحه الكسول. ولكن بندكت لم يكن مطمئناً بسهولة.

ـ ماذا فعل.. ذلك الخنزير؟ إن وضع يده عليك فسأسحقه، ولن أهتم عندئذ حتى لو أعطى مشروعي إلى شخص آخر.. بل لن أعمل عنده ولو مقابل ألف جنيه!

كان وجهه ممتقعاً بقوة وأنفاسه ثقيلة كأنفاس جواد مرهق.

طلبت منه سيرينا برقة أن يتوقف عن القلق، وتابعت:

ـ نمت على الأريكة في غرفة الجلوس.

وطفقت تروي لهما ما حدث، فأصغيا بذهول.. وكان كيري هو من وضع أصبعه على عقدة ما حدث فسأل:

ـ لكن، إن لم تنتزعي أنت فحمة الموزع، فمن الذي انتزعها؟ أتعتقدين أنه انتزعها انتقاماً؟ كي يهددك..

وصمت ضاحكاً..

ـ لا.. هذا مستحيل.. أليس كذلك؟ أعني لو انتزعها في الليلة السابقة ليبقيك في الكوخ لفهمت السبب.

تمتمت سيرينا: «وهل كنت ستفهم؟ يا لعقلك الخلاّق! هذا ما كنت ستفعله على ما أعتقد».

ابتسم لها: «حسناً.. إنها مسرحية هزلية جيدة.. يجب أن أتذكرها كلما حاولت إقناع فتاة بالبقاء معي ليلاً».

وضحك، لكنها لم ترد عليه، بل نظرت إليه بازدراء:

ـ أيها الدودة الخائنة.. سأحذر صديقاتك من أفكارك الشريرة.

نظر إليها بندكت مستبشراً:

ـ لكن، هل قال حقاً إنني أستطيع العودة إلى عملي؟ وهل سيغضب مني بشأن هذا، أعني بعدما عرف أنني دفعتك إلى مكالمته.. فقد يلومني على كل شيء..

تنهدت سيرينا: «لا، بل هو يلومني أنا».

ساد صمت قصير قطعه بندكت فجأة:

- أراهن أنها السكرتيرة، كريستي ريفز، يقول الجميع إنها تحس بالتملك الشديد نحو لانس ستوراي.. فهي تعمل معه منذ انطلاقته ولم تتزوج بل سمعت أنها تحبه منذ سنوات ولكنه لم يلاحظ حبها.

سأل كيري باهتمام: «أهي جميلة؟»

كشّر بندكت وجهه: نحيلة عجفاء.. كأنها تفاحة خضراء.

قالت سيرينا: «غير معقول.. إن كانت تحبه، فلماذا تريد أن تبقيني معه وحدنا في الكوخ؟»

فكر كيري قليلاً: «لتضبطكما خطيبته».

نظرت إليه عابسة.. فأضاف بندكت:

- وتفسخ الخطوبة.. هذا أمر معقول.. أليس كذلك سيرينا؟

اضطرت للاعتراف بأن هذا معقول وقالت:

- أفكر في الذهاب إلى لندن، لأواجهها بالأمر.. أظنك على حق.. فلا أحد سواها عرف بأنني هناك.

قال كيري: «لا تفعلي هذا.. اتركي الأمر على حاله يا طفلتي.. فقد استعاد بندكت عمله، وخرجت أنت من الصورة.. لو كنت مكانك، لابتعدت عن طريق ستوراي».

- هذا ما سأفعله، فليتني لا أراه ثانية.. لقد أوضح أنه لا يريد رؤيتي مجدداً.

تمنت لو أنها لم تقابله قط. إن رجلاً كهذا يجب أن يوضع عليه تحذير صحي حكومي: «هذا الرجل خطر على الصحة العامة، بإمكانه الإضرار بشدة بسلامة عقلك وراحتك» جعلها مجرد التفكير بعناقه تحس بثقل في رأسها.

قالت للرجلين: «سأصعد لأغير ثيابي، ثم أخرج للتسوق.. من الأفضل أن أشتري ثياباً جديدة لئلا أثير ريبة أمي.. آه!.. على فكرة كيري.. اتصل بديوغ واطلب منه عدم قول شيء أمام أمي وأبي».

هز كيري رأسه: «وهل أخبره السبب؟ فهو سيسأل».

- قل له إنني نمت عند صديقة.

نظر إليها ساخراً: «قد يفسّر ديوغ هذا الادعاء تفسيراً تقشعر له الأبدان».

ردت ساخطة: «قله له ما شئت إذن، إنما لا تضف شيئاً على القصة، فالحقيقة سيئة بما فيه الكفاية».

لحق بها بندكت:

- سيرينا.. أنا ممتن لك.. لا أدري كيف أشكرك.

ردت بحدة جعلته يجفل:

- لا تنسف المختبر ثانية.. هذا رد كاف للجميل.

- أرجو ألا يكون ما مر بك ورطة كبيرة.. ما كنت لأطلب منك ذلك لو عرفت أن هذا سيحدث.. ما كان عليك الاختباء في سيارته. لو عرفت أنك ستقدمين على شيء كهذا لما سمحت لك.

- ما هذا الكلام عن السماح لي بهذا وعدم السماح لي بذاك؟ أنا لست ملكاً لك، بندكت رامسي! ولست مضطرة لطلب الإذن منك لأقوم بأي أمر.

وضعت قدمها على الدرج والتفتت إليه من فوق كتفها:

- لكن بإمكانك اصطحابي للعشاء في مكان فاخر حقاً.. أنت مدين لي بعشاء فاخر.. كما أنني أفضل أن أكون في الخارج عندما يعود أهلي فذاك يوفّر عليّ أسئلة محرجة كثيراً وعندما أراهما سأقول لهما انني قررت عدم المكوث في لندن يوم الأحد وعندئذ سيظنان إنني لحقت بآخر قطار يعود إلى هنا.

بدا بندكت غير سعيد: «لا أحب فكرة الكذب على أبويك».

ردت عليه بقسوة: «لن تحزن أمي على أمر لا تعرفه، ولكن لو عرفت أنني أمضيت ليلة مع لانس ستوراي بمفردنا في ذلك الكوخ لجعلتنا معاً نتمنى لو أننا لم نولد.. فهل أنت مستعد لمواجهة أحد

تحقيقاتها؟»

تقوقع بندكت في مكانه فهزت رأسها له:

- بالضبط.. عرفت أنك ستفضل الكذب.. إن في مثل هذه الحالة يكون الخداع خيراً من الفضيلة.. لم يحدث ما أخجل منه، لكن أمي لن تصدق هذا حتى تعرف كل شاردة وواردة حدثت تحت ذلك السقف ثم إن حصلت على ما تريد فلن ينتهي الأمر. بل ستظل تتكلم عن المخاطرة التي عرّضت نفسي إليها حتى أصاب بالصمم.

رد بندكت متجهماً: «هكذا هن الأمهات».

من الواضح أنه كان يفكر بأمه، فالسيدة رامسي أرملة وهو ابنها الوحيد، لكنه لم يكن متعلقاً بها كثيراً.. هي امرأة لطيفة كانت سيرينا على وفاق معها في طفولتها ومراهقتها اللتين أمضتهما مع بندكت وكيري، ولكنها اليوم لا ترحب بها كثيراً.. فهي تخشى أن يتزوج بندكت ويتركها.. إنه حياتها كلها، وهي امرأة خجول شديدة التوتر، ليس لها أصدقاء كثر.. لذا تتصور السيدة رامسي أن حياة وحدة قادمة إن تزوج ابنها وتركها.

صعدت سيرينا إلى غرفتها فارتدت كنزة بيضاء وبنطلون جينز.. عندما عادت إلى الأسفل، كان كيري قد رحل، وبندكت ينتظر.

قال لها: «سآتي لاصطحابك في السادسة إذن.. سنذهب إلى مطعم «البحارة الثلاثة» أيناسبك هذا؟»

ردت بحماسة: «عظيم إنما عليك أن تحجز مسبقاً وإلا لن نجد طاولة خاصة ليلة سبت»..

ابتسم بندكت بإذعان.. يقع المطعم الريفي الكبير، في نورفولك، في فندق ريفي شهير ذي سمعة جيدة وهو يقدم طعاماً من الطراز الأول.

قال: لقد حجزت فيما كنت تغيرين ملابسك، وقالوا إنها الطاولة الأخيرة المتوفرة، فالمكان محجوز كله.

ارتدت سترتها ثم فتحت الباب:

- سأتغدى في البلدة، وأنهي تبضعي. فإن لم أشتر ما أرتديه في حفل زفاف برنار فستطلب أمي معرفة السبب. سأذهب إلى «نورويتش» لأنني جُلت في جميع محلات «بلاكستون» كما أن أمي ستعرف من أين اشتريته فيما لو شاهدت شيئاً معروضاً هنا.

دخلت إلى سيارتها وسط نظرات بندكت، وأنزلت زجاج النافذة لتستند إليها:

- لا تتأخر.. في تمام السادسة لأن أمي وأبي عائدان في السابعة.. فأبي لن يتوقف عن الصيد حتى حلول الظلام، وسيصلان بعد حلوله بنصف ساعة..

شغلت المحرك ثم ابتعدت تاركة بندكت واقفاً على ناصية الشارع وكانت الشمس قد حولت شعره الزبدي اللون إلى ذهبي، وبدا لها في غابة الوسامة بسرواله الرمادي، وكنزته البرتقالية.. شاهدت في مرآتها الأمامية عدة فتيات يرمقنه بإعجاب وهن يمررن به ولكنه لم يلاحظهن. لأن رأسه مشغول بأشياء أخرى.. مسكين بندكت إنه لا يدري حقاً أنه حي!

لم يكن من العدل مقارنته بلانس ستوراي ومع ذلك لم تستطع منع نفسها من المقارنة، بندكت أوسم من لانس ولكنه لا يثير نبضات قلبها.. أما لانس فتأثيره فيها يكاد يشبه الكارثة.. فكرت في أنها لن تعود ثانية إلى ما كانت عليه سابقاً.. وليس مرد ذلك إلى إعجابها به، بل هي أبعد من هذا بكثير.. ولكنه رجل مسيطر، وسيرينا لن تطيق هذا الصنف من المسيطرين المغرورين. إنها مسرورة لأنه حذرها من الاقتراب منه مستقبلاً.. فهذا مؤكد.

لم تصل إلى «نورويتش» إلا في وقت متأخر فكان أن اكتفت بسندويش همبرغر وقهوة قبل البدء بجولتها على المحلات لشراء ما ترتديه في زفاف أخيها.. كانت المدينة مكتظة لأن اليوم هو ظهر السبت.. بعد بحث دؤوب وجدت فستاناً من الجرسيه الصوفي الليموني

اللون، ذي ياقة حريرية بيضاء جميلة تشبه الطوق، ثم اشترت حذاء وحقيبة لونهما أصفر وأبيض لينسجما مع الفستان والسترة.. ثم اشترت بعد تردد قبعة مستديرة ذات قناع أبيض يخفي نصف عينيها.

تكره سيرينا القبعات.. ولكنها تعلم أن القبعة سترضي أمها، وتلهيها عن الاستفسار الرقيق عما فعلته في لندن، فجوانا برينتيس مولعة بالقبعات لأنها تجدها مثال الأنوثة والأناقة.

عندما وضعت سيرينا مشترياتها في سيارتها، كانت الساعة الرابعة.. فأخذت تتمشى في شوارع «نورويتش» الضيقة.. كانت المدينة مركزاً لتجارة الصوف في القرون الوسطى، وكانت مكتظة بالمنازل والكنائس القديمة المذهلة التي كان خشبها المطلي بالأبيض والأسود يثن هامساً أمام ريح الربيع، وكأنها أشرعة متأوهة. قبل عودتها إلى سيارتها، احتست الشاي في مقهى صغير.

عندما وصلت إلى البيت شعرت بالراحة لأن والديها لم يعودا حتى الآن. كما أنها لم تر لهما أثراً حتى عندما غادرت البيت مع بندكت.

قالت سيرينا: «ربما توقفا للعشاء في مكان ما، ولكنني أرجو ألا يكونا قد آختارا مطعم البحارة الثلاثة».

بدا الرعب على بندكت: «وأنا كذلك».

ـ أنت متآمر فاسد.. توقف عن الارتجاف، وركّز اهتمامك على الطريق، فهما لن يأكلانا وإن رأيانا.

وبدأت تضحك: «ستقول لهما الإدارة إنه لا يسمح للزبائن بحمل طعامهم معهم..»

قال بندكت متجهماً: «هذا ليس مضحكاً».

نظر حوله بترقب وهو يدخل إلى موقف السيارات الذي كان فيه عدة سيارات ولكنه سرعان ما أدرك أن سيارة الزوجين برنتيس غير موجودة بينها أما سيرينا فتلقت صدمة لأنها فوجئت برولز بيضاء متوقفة في مكان منعزل من الموقف.

نظرت بحدة إلى السيارة. لم تأخذ رقم سيارة كلاريسا هوارد، لكن حدسها يقول لها إنها سيارتها.. وفي أعقاب هذه الفكرة أتت فكرة أخرى.. لا يمكن للانس ستوراي أن يكون هنا أيضاً؟

تأوهت لنفسها: «آه! لا».

التفت بندكت وهو يقفل باب السيارة ثم جالت عيناه إلى ما حوله:

ـ ما بك؟ هل شاهدت سيارة أبويك؟

ردت بجنون: «لا.. ولكن إذا كانت هذه السيارة سيارة كلاريسا هوارد، فقد نجد نفسينا نتناول الطعام وجهاً لوجه مع لانس ستوراي».

أمسكت بذراع بندكت الذي تراجع بسرعة إلى سيارته وأخذ يفتحها مجدداً:

ـ لا تكن جباناً هكذا! إن كان مع خطيبته فلن يتركها ليضربك.

اضطرت إلى جره نحو المطعم. كانت قدماه تجرفان الحصى مع كل خطوة. نظر رئيس السقاة إليه نظرة ضيقة، وليس هذا بعجيب، فقد بدا بندكت وكأنه رجل ينوي الهرب. كانت ذقنه تغوص في ياقة قميصه، وكأنه يحاول التخفي.. راجع كبير السقاة دفتر حجوزاته:

ـ رامسي سيدي؟.. همم..

ثم رفع رأسه معترفاً على مضض أن لهما حجزاً، وأدخلهما إلى الغرفة الفسيحة.. ولكن سيرينا تعمدت عدم النظر إلى ما حولها لأنها لا تريد رؤية لانس ستوراي إن كان هنا.

بعدما تركهما كبير السقاة، طلبا بعض المقبلات. رفع بندكت كأسه إلى شفتيه، ليبتلع نصف محتوياته، وهو يحدق يائساً حوله.

ثم همس وهو يكاد يريق نصف محتويات الكأس:

ـ أوه.. يا الله! أنت على حق.. إنهما هنا.. وراءك.. في منتصف الغرفة، خلف العمود الثالث، ولا أظنهما شاهدانا.

نظرت سيرينا إلى لائحة الطعام رافضة رفع رأسها وقالت آمرة من وراء غلاف اللائحة:

- لا تنظر إليهما.. أتساءل ما هو حساء «الكريوك»؟ يبدو لذيذاً.

تأوه بندكت: «يا لسوء الحظ. إنه قبالتنا».

- تجاهلهما.. أكاد أموت جوعاً.. سأطلب لحم البقر المطهو مع الطماطم وهم يقدمونه مع الأرز بالزعفران.

مد بندكت رأسه إلى الأمام، يقول متوسلاً:

- لن يقوم بفضيحة علنية، أليس كذلك؟

- بكل تأكيد لن يقوم بذلك، وعلى أي حال هو مع خطيبته وهذا يعني أنه لن يجرؤ على التنفس بكلمة بالنسبة لليلة الأمس.. في الواقع.. أنا مستعدة للرهان بأنه سيتظاهر بأنه لا يرانا.. وهي لن تتعرف إلينا كذلك.. فلا أظننا نؤثر فيها أبداً بل هي لا تلاحظ أحداً تظنه أدنى منها درجة.

عندما عاد الساقي يأخذ طلباتهما تابعت سيرينا احتساء شرابها متلذذة بطعمه الشهي غير مستعجلة، محدّثة بندكت عما اشترته من ثياب اليوم.

- برنار محظوظ لزواجه من باتي التي ستكون كنّة رائعة. أنا أفضلها على سوزي.. ففي سوزي ميزات المرأة العاملة. أعرف أنها تعمل بسبب حاجتهما إلى المال ولكنني غالباً ما أحس بأنها مهتمة بعملها أكثر من اهتمامها بديوغ.. إنها متحجرة القلب وليس لديها روح المرح..

هز بندكت رأسه، يتناول السمك المدخن الذي طلبه، وقال: «قال كيري القول نفسه».

- كان كيري وديوغ صديقين مقربين ولكننا لم نعد نراه مؤخراً.. فسوزي لا تحب قيادة السيارة إلى نورفولك، على ما أظن.. وتفضل لندن.

- حسناً.. هذا شيء في صالح باتي.. هي فتاة طيبة تناسب برنار..

يعمل برنار برنتيس مراقباً مع المجلس البلدي، وتعمل معه زوجة

المستقبل في المكان ذاته إنما في قسم الرواتب.. لكنها اعترفت أنها حالما تستطيع وبرنار تحمل النفقات حتى تنجب طفلاً وتتخلى عن العمل، ولكن هذا قد لا يحدث في وقت قريب. فهما يخططان أولاً لشراء منزل وبناء على هذا سيكون راتب باتي جزءاً أساسياً من ميزانيتهما في السنتين القادمتين على الأقل.

كانا في منتصف العشاء عندما سمعت سيرينا حركة خفيفة بين الزبائن ورفعت رأسها فرأت كلاريسا هوارد تسير بعنف في الغرفة. سرعان ما لاحظت سيرينا الفستان الأسود والذهبي الغالي الثمن، كانت كلما التقت بالشقراء تراها مرتدية ثوباً مختلفاً. ترى كم تنفق على ملابسها؟ شعرت بشيء من الحسد لم تستطع كبحه.. فميزانيتها تحدّد لها المبلغ الذي تنفقه على ملابسها وهي تتدبر أمرها لأنها ترتدي معظم الوقت الجينز والتي شيرت.

اختفت كلاريسا في غرفة السيدات، فتركت سيرينا عينيها تلتفتان عبر الطاولات الأخرى إلى حيث يجلس لانس ستوراي.. كان يمسك كوب عصير في يده يحدق فيه عندما وصلت عيناها إليه.. ولكن ما هي إلا لحظة حتى رفع نظره فوجدت نفسها تنظر مباشرة إلى عينيه الباردتين الرماديتين.. سرت الحمى في أعماقها، واحترق جسمها لإحساسها به ولكنها شعرت في داخلها بغضب تجاهه.. إنه قاس مع بندكت ومعها.. يسن القوانين لكل من يعمل عنده، يفرض إرادته بلا رحمة، ويقوم بطرد كل من يزعجه أو يعصي أوامره. ولكنه رغم كل ذلك ضعيف أمام كلاريسا التي تراقصه على نغماتها والمؤسف أنه يتركها تديره حول أصبعها الصغير. لقد كان خائفاً جداً منها ومن ردة فعلها في ما لو اكتشفت أن في الكوخ معه فتاة أخرى لقد خاف إلى درجة الخضوع للابتزاز.

تحولت نظرتها إلى نظرة ازدراء، وقسا فمها.. فضاقت عينا لانس والعقد حاجباه وكأنه قرأ ما على وجهها من تعبير عندئذ أشاحت بوجهها

عنه.

من الغباء أن يدهشها ضعف لانس أمام كلاريسا.. ألم يظهر لها إخوتها أن الرجال ضعفاء أمام الفتيات من مثيلات كلاريسا هوارد؟ الإثارة هي مقوم خطير كأي شيء يستخدمه بندكت في تجاربه.. والإثارة الجسدية هي بالضبط ما تتضح به كلاريسا، من شعرها الأشقر إلى أخمص قدميها.

قال بندكت متردداً وهو يمد يده ليلفت انتباهها:

ـ أنت هادئة جداً.

التفتت إليه وفي عينيها الخضراوين غضب فأجفل يسأل: «ما خطبك؟»

تأوهت: «يقرفني الرجال! كلكم أغبياء، بإمكان المرأة التلاعب بكم كالخاتم في إصبعها».

ثم تراجعت عندما رأت تعبير بندكت المرتبك.. فربتت على يده:

ـ لا بأس.. فأنتم لا تستطيعون شيئاً.. لا أدري من اخترع الإثارة.. ولكن التجربة كانت فشلاً ذريعاً.

نظر إليها بندكت غير واثق من نفسه.

ـ أشكرك شكراً جزيلاً لأنك أنقذت عملي سيرينا.

وتلفت حوله متورد الوجه حتى منابت الشعر، ثم تمتم بدون أن تلتقي عيناه بعينيها:

ـ أردت أن أسأل.. حسناً.. ما أنا.. أتظنين أننا قد.. حسناً.. ليس فوراً.. ولكن.. في وقت ما هل..

سألته بحدة متسائلة عما يدور في رأسه الآن:

ـ ماذا؟

إن كان يريد منها التحدث إلى لانس ستوراي مرة أخرى فليدّخر أنفاسه إذ لا وجود بالنسبة لها للانس ستوراي وهي تفضل الموت على الاقتراب منه.

رد عليها بشهيق بعدما ابتلع ريقه:

ـ أتتزوجينني؟

* * *

٦ ـ من يتزوج سيرينا؟

أنزل بندكت سيرينا إلى منزلها قبل منتصف الليل بقليل، وهو في مزاج مرح. فعندما ودّعته متمنية له ليلة سعيدة تلقت ابتسامة عريضة.. كان قد انتظر ردة فعلها على طلبه وكأنه ينتظر الحكم بالإعدام شنقاً.. وحينما قالت له بلطف: «إن طلبك يرضي طبعاً غروري يا بندكت، إذ لم يتقدم أحد إلى طلب يدي من قبل!» عمت عينيه الراحة فقاومت بشدة لئلا تقهقه بصوت عال، فقد عرفت أنه تقدم طالباً يدها لأنه يحس أنه مدين لها لأنها أنقذت عمله.. كما عرفت أن الحب ليس دافعه أبداً. نعم هو مولع بها لكن شعوره تجاهها شعور أخوي ليس إلا. ولكنه شُرِّب منذ الصغر فكرة الشهامة نحو النساء على يد أمه التي ستكون مذهولة لو عرفت إلى أين أودت بابنها الحبيب بتأكيدها المستمر له بأن عليه معاملة النساء كالبورسلان.. وبالاهتمام بهن. لقد كان هدف السيدة رامسي أن يهتم بها وأن يعاملها كالبورسلان..

قال بندكت بحبور مرتبك:

ـ أوه.. حسناً إلى وقت آخر إذن.

عضت شفتها: «أجل».

ـ أعني.. هل أنت واثقة أم لا؟

ـ واثقة.

ـ لأن كيري قال..

ازداد امتقاع وجهه.. وضاقت عيناها: «ماذا قال كيري؟»

ـ قال فقط إننا نتقابل كثيراً، وإنه يتساءل عما إذا كان في علاقتنا ما هو خاص.

مرر أصبعاً داخل ياقته.

ـ إذن طلب الزواج فكرة كيري؟.

سأنتظر حتى أرى أخي.. كيف يجرؤ على وضع مثل هذه الأفكار في رأس بندكت الفارغ؟ يعرف كيري خير معرفة أن بندكت لا يستطيع التفكير في أمر كهذا وحده..

أردف بندكت معترفاً:

ـ ثم.. لقد تعرضت للمشاكل من أجلي، وهذا عمل جليل منك.. أحسست..

قاطعته سيرينا: «أنك تدين لي بالزواج؟»

انتفض كأرنب فوجيء بأنوار سيارة قوية وعجز عن اتخاذ الوجهة التي يهرب إليها.

قال بتعاسة: «أنا لا أحسن التعبير عما في نفسي».

أشفقت عليه، وربتت على يده.

ـ لا بأس عليك بندكت.. لا تلقي بالاً لما يقوله كيري. إنه يحاول الإيقاع بك.

رأت وجهه يصفو.. كان معتاداً على كيري ومقالبه وهو يمازحه دائماً منذ كانا صغيرين.. كيري أسرع منه وأفطن، مع أن بندكت عالم ألمعي وربما لهذا السبب أهمل بندكت الكثير من أوجه الحياة وركز بشكل كامل على علمه. كان يفكر ويعيش ويأكل ويشرب ويتحرك ضمن حدود ضيقة.. ثم أصبح كل ما هو خارج العلم منطقة محرمة.

ستقبل امرأة ما يوماً بالزواج به ولكنها لن تكون هذه المرأة.. هي متعلقة به ولكنها لا تريده زوجاً فهو إن أصبح زوجاً شخص عاجز عاقل، كامل مناسب لفئة من النساء.. عاجلاً أم آجلاً سيتم التعرف إليه واصطياده. وعندئذ ستقع معركة كبيرة بين أمه وزوجته.. وبسبب قصر

نظر بندكت العاطفي لن يعي أبداً الحرب التي ستدور حوله ومن أجله وجلّ ما سيفعله هو استرضاء المرأتين وتهدئتهما.

تلك الليلة قال لها:

ـ عندما أخبرت أمي أن لدي عطلة مدة خمسة عشر يوماً، اقترحت عليّ الذهاب إلى «ديفون» لقضاء بضعة أيام مع خالتي إيما.. ألم أخبرك؟ سنسافر يوم الثلاثاء إذن أراك لدى عودتي، حسناً؟

ضحكت سيرينا وهي تنظر إليه بتفهم كامل: «حسناً، أراك فيما بعد بندكت».

واستوت واقفة، تراقبه مبتعداً وتتساءل عما إذا كان يعي، ولو بغموض، أن أمه انتزعته للتو من بين فكي الزواج؟ إذ لا تريد منه السيدة رامسي أن يبقى حول سيرينا كما لا تريد أن يشغله أحد.. وهي تعمل على أساس المثل القديم القائل: إن اليد التي لا تعمل تفتش على الشرّ لتعمله. قررت أمه مسرورة أن تراها امرأة خطيرة.. سارت إلى المنزل وهي تلوح بحقيبة يدها ناظرة أمامها من بين أهداب نصف مغمضة في تقليد لا بأس به للمرأة الخطيرة.

قطع عليها وضعها المتكلف انفتاح الباب الأمامي ونظرة كيري الذي سألها بصراحة أخوية:

ـ لماذا العبوس؟

همست: «هل والداك في الفراش؟»

هز رأسه: «منذ ساعات».

ـ أخفض صوتك.

ودفعته إلى الداخل.. كان باب غرفة الجلوس مفتوحاً. رأت المصباح مضاء قرب الأريكة وعلى الطاولة الصغيرة صحن فيه سندويشان وكوب كاكاو، من الواضح أن كيري قد أعدّ لنفسه جلسة ممتعة. فتقدمت إلى الغرفة ثم تناولت سندويشاً نظرت إلى ما فيه من طعام.

ـ همم.. لحم مجفف.. إنه ما أحب.

قضمت قضمة فقال كيري ساخطاً، محاولاً انتزاع السندويش منها:

ـ هاي، هذا لي.. اذهبي وحضري طعاماً لك.

رمت نفسها على كرسي قرب النار التي كانت تتأجج في الموقد.

قالت له: «اسمع.. ماذا كنت تقصد بالتلميح لبندكت بأن عليه أن يخطبني بسرعة؟»

بدأ كيري بالضحك، ثم استند إلى رف المدفأة ووهج النار يتلاعب بوجهه.

ـ وهل طلب يدك؟

ـ أجل.. ولا أدري ما كان سيفعله لو قبلت به.. الحمل المسكين. كان سيذهب إلى منزله ليقتل نفسه.. ولا أدري أي منا كان أشدّ خوفاً من الفكرة.

ـ كنت أمازحه فقط!

ـ أعرف هذا.. ولكن بندكت لم يعرف أنك تمازحه. إنه لا يعرف أبداً متى تستغله.

جلس كيري على الأريكة ينهي عشاءه الصغير، فيما راحت هي تخبره عن الراحة التي أبداها بندكت عندما رفضت الزواج به.

تمدد كيري متثائباً: «إنه أبله. قلت لأمي وأبي إنك عدت من لندن لأن الإقامة هناك سببت لك الصداع، فسألتني عما إذا اشتريت ثياباً لرفاف برنار. فأجبتها أنه لم يخطر ببالي أن أسألك.. فقالت إن لا نفع مني، وذهبت إلى النوم مسرورة».

ـ شكراً لك كيري.

هز كتفيه متثائباً مرة أخرى: «أهلاً وسهلاً يا صغيرتي».

نظر إلى الساعة: «سآوي إلى فراشي حالاً».

نظفت سيرينا مكان عشاءه وأطفأت الأنوار ثم لحقت به بعد دقائق.. وفيما هي توشك أن تغفو، تسلل لانس سنوراي إلى رأسها.. فاتسعت عيناها بنظرة استغراب ورفعت أصابعها إلى ثغرها.. وأخذت

تتذكر كيف عانقها ذلك الصباح.. بدا لها أن ما حدث وقع منذ مئة سنة.. وأنَّ أموراً كثيرة جرت منذ ذلك الحين ولكن رغم ذلك.. ما زالت الذكرى حية.

استدارت لتسوّي وسادتها، ثم استقرت ثانية على أمل أن تنتزع كل فكرة تتعلق به من رأسها.. لا تريد التفكير فيه.. ليتها تنسى أنها رأته يوماً.

كانت حياتها في الأسبوعين التاليين هادئة نسبياً، ولكن زفاف أخيها برنار، يعني لم شعث أفراد العائلة جميعهم.

قال السيد برنتيس لزوجته:

ـ كنا محظوظين لأننا أنجبنا ابنة واحدة فعائلة العروس مضطرة إلى تحمل وطأة التحضير للزفاف.

بدا على السيدة برنتيس الغضب:

ـ عرضت على أم باتي المساعدة ولكنها قالت إنها تستطيع تدبير الأمر.

ـ حسناً.. إنه يوم الفرحة الكبرى.

كان السيد برنتيس مستمتعاً بممازحة زوجته التي ردت بحدة: «لكن باتي هي العروس».

ـ هي العذر ولكن الأم هي التي انتظرت هذا اليوم منذ عشرين سنة.. ولا يدهشني أن ترفض مساعدتك فهي الآن محور المسرح كله ولن تتشارك الأضواء مع أحد. إنما لا تقلقي جوانا سيأتي دورك.. سيرينا، كيف تتركين أمك منتظرة هكذا؟ لا شك أن هناك شاباً يمكنك الزواج به؟

وبخته الأم: «لا تكن سخيفاً ڤيكتور!»

هدأتها سيرينا: «أبي يمازحك يا أمي».

ـ أعرف هذا، ولا أحتاج إلى أن تشرحي لي.. ڤيكتور.. تناول البيض قبل أن يبرد.

في الوقت نفسه نظرت إلى سيرينا نظرة تأنيب.. فتحت ممازحة السيد برنتيس تكمن حقيقة مؤكدة.. فهي تحلم قطعاً بيوم زفاف سيرينا، ولقد بدأ الحلم منذ كانت مستلقية في الفراش مع وليدتها الجديدة، بعينين حالمتين.. لقد تزوج ثلاثة من أبناء العائلة حتى الآن.. وفي كل زفاف كانت مضطرة إلى الاستواء إلى مقعد خلفي في التحضير لزفافهم، فيما أمهات العرائس يعطين الأوامر.. والواقع أن جوانا برنتيس تشعر أن سيرينا لا تحاول جادة.. ولقد بلغت الثالثة والعشرين، فحتامَ تبقيها منتظرة؟

قرأت سيرينا أفكار أمها فأشاحت بوجهها باستياء ونفاد صبر. لقد تمنت سيرينا لو تتزوج وهي في التاسعة عشرة خاصة وهي تراقب صديقاتها يتزوجن باكراً، وقد أشعرها عدم إقبال أحد على الزواج بها بأنها مهملة ولكنها تدريجياً شعرت بأنها غير مستعدة لتحمل مسؤولية الزواج وضغوطاته.. إنها تحب عملها الذي يعطيها الحرية لتفعل ما تريد، ولهذا لا تريد الزواج الذي سيضيق من أفقها.

بعد انضمام بندكت إلى المؤسسة، ضاقت آفاق سيرينا على أي حال.. لأنه لم يكن يبتعد عنها قيد أنملة فتولد لدى الناس انطباع خاطىء.. لقد افترضوا أن لبندكت حقاً عليها، ولكن ماذا تفعل؟ هل تضع على صدرها عارضة تقول: أنا لست من أملاك بندكت رامسي، وهي عالقة ما بين تعلقها به وبين كراهيتها لاحتكاره لها، فهو لا يحبها وهي لا تحبه.. إنما كيف توضح ذلك للناس بدون أن تجرح مشاعره؟

كان يوم الزفاف يوماً صافياً.. يوم من أيام نيسان الرائعة. كان فستان العروس الحريري شديد الرومانسية. جرت المراسم بدون إعاقة، كانت خلالها أم العروس أكثر إشراقاً من العروس نفسها.. أما السيدة برنتيس فبكت بسعادة لمنظر ابنها الذي يبدو أنيقاً على غير عادة، لأنه عادة يرتدي الجينز.. ولكن البذلة وترت أعصابه إذ راح يتلاعب بربطة عنقه الرمادية، وعندما ضحك كيري في وجهه ممازحاً، عبس ووعد بأن

يركل أخاه إن تفوه بكلمة أخرى.

قالت سيرينا في أثناء حفل الاستقبال، لزوجة أخيها سوزي:

- كان حفلاً جميلاً.

لم تكن سوزي هي المفضلة لدى سيرينا بالضبط.. ولكنها أحست أن عليها أن تكون ودودة معها من أجل ديوغ.. كانت سوزي تبدو أنيقة هذا اليوم. شعرها الأسود مرفوع على قمة رأسها، ومثبت بمشط عاجي إسباني الطراز. وكان فستانها الأحمر القاتم يكسو جسدها ويظهرها رشيقة كنمرة.. لكن تعابير وجهها كانت تفسد كل تأثير.. فطالما نجحت سوزي في ترك انطباع بأنها تشعر بالضجر مع عائلة برنتيس، وأنها تشمئز مما يحيط بها..

سألت سوزي عن غير اهتمام حقيقي:

- ومتى زفافك؟ قدمني ديوغ إلى صديقك.. إنه شاب وسيم. أليس كذلك؟

صرّت سيرينا على أسنانها وتمتمت بامتعاض:

- بندكت؟ لن أتزوجه.. ليت الناس يخرجون هذه الفكرة من رؤوسهم.

نظرت سوزي إليها رافعة الحاجبين:

- لا؟.. لكن ديوغ مقتنع بأنكما على وشك الخطوبة.. غير أن ديوغ يفهم دائماً الأشياء بالمقلوب. كان عليّ أن أصدق ما قال.

انتفضت سيرينا بسبب الحدة في صوت زوجة أخيها فسحبت نفساً عميقاً قبل أن تنظر إليها.. وقبل أن تقول شيئاً، ظهر بندكت يطالبها بالرقص.. لقد عاد من عطلته في اليوم السابق ولكن لم تتح الفرصة لسيرينا بمحادثته قبل الآن.. عندما ابتعدا شعرت بنظرات سوزي الساخرة تلاحقها.. فتورد وجهها إذ لا شك أن سوزي تتساءل عما إذا كانت احتجاجاتها قبل قليل كاذبة.. وهنا تكمن المشكلة.. فما دام بندكت حائماً حولها، فلن يصدقها أحد أنها لا تحبه.

سألته بنفاد صبر متوتر وهما يرقصان: «هل كانت عطلتك موفقة؟».

وجدت سيرينا الأنوار البرّاقة المتقطعة مزعجة.. فحينما كانت تومض من حولها كانت تقلب وجوه الناس إلى ألوان شاذة، فتحول الجميع إلى هيبيين بمن فيهم السيدة رامسي الواقفة تراقب ابنها وسيرينا وهما يرقصان.

قال بندكت من غير اهتمام كبير:

- لم يكن الطقس جيداً.. ولكننا تمكنا من مشاهدة معالم البلدة. وقد ذهبت لصيد السمك يوماً.. ولكنني اضطررت إلى البقاء طوال الوقت مع أمي وخالتي لأنزّههما في السيارة.

نظرت إليه مشفقة. مسكين بندكت.. على أحد ما أن ينقذه، ولكنها لن تتطوع لإنقاذه خاصة بعدما جرى.. على سيدة ما شجاعة غيرها أن تسرع لإنقاذه.. فهي لا تخاف الوحوش التي في حياته بمقدار ما تخاف أن تتحمله دائماً.. فكرت ملياً في من يمكن أن تكون المرشحة لتحلّ محلها في مركز الحامي. إن في المختبر عدة فتيات مهتمات به ولكن أيمكن لإحداهن الوقوف في وجه أمه؟

سألها بندكت: «هل عاد لانس ستوراي من بروكسل؟»

انتفضت وأصبح جسمها لا يتحرك بسهولة مع الموسيقى: «لا أعرف».

بدا دهشاً لأنه لا يعرف سبب توتر سيرينا وذعرها كلما ذكر اسمه. قال شارحاً: «اعتقدتك رأيته».

قاطعته: «ولماذا أراه؟ ومن هو لانس ستوراي بالنسبة لي؟»

كان قادراً على الرد بأن انسيد ستوراي هو رئيسها.. ولكنه امتنع عن ذلك غير أنه بدا مشوشاً ومرتبكاً وهو يقول:

- ألم يحضر إلى المختبر في أثناء غيابي؟ أهو جاد.. هل سيتصل بي؟ قلت إنه سيتصل ولكنني لم أسمع منه كلمة حتى الآن.

كان في صوته وعينيه تأنيب وهو يكلمها فلم تستطع إلا الإشفاق

عليه، إذ لم تكن سيرينا منيعة أمام نظرته العاجزة.

هدأته متنهدة: وعدني بمقابلتك حالما يرجع وبما أنه لم يتصل فهذا يعني أنه لم يرجع فلا تقلق بندكت.. سيكون كل شيء على ما يرام، وسيحافظ على وعده.

هذا ما هي واثقة منه كل الثقة فليس لانس ستوراي بالرجل الذي يتراجع عن وعد قطعه.

في الصباح الذي أعقب حفلة الزفاف نامت سيرينا حتى الساعة الحادية عشرة. وعندما نهضت وجدت أن جميع أفراد العائلة في حالة كسل. جلسوا بعدما تناولوا فطوراً خفيفاً يقرأون صحف يوم الأحد، ويتبادلون تعليقات متفرقة عن الأنباء وعما حدث بالأمس المثير.. أما السيدة برنتيس فظلت في حركة دؤوب تحضر غداء يوم الأحد.. وفيما هي خارج الغرفة، قال كيري لوالده:

ـ أنا قلق على ديوغ.. يبدو أنه مكتئب محبط.

رفع السيد برنتيس رأسه، يمسك غليونه بين أسنانه، هازاً رأسه:

ـ أتظن أن المشكلة بينه وبين سوزي؟ أجل.. لاحظت هذا.

سألت السيدة برنتيس، وقد ظهرت كجنيّ من زجاجة.

ـ لاحظت ماذا؟

تأهبت لئلا يفوتها شيء.. فنظر كيري إلى والده، تاركاً له الرد، فنظر السيد برنتيس إلى زوجته وقال:

ـ لم يبدُ ديوغ بصحة جيدة.

قالت السيدة برنتيس: «بدا مرهقاً».

كان ديوغ كونه بكر أولادها المفضل عندها كما كان كيري الأصغر المفضل لدى برنتيس.. مع أن كلا الوالدين حاولا جهدهما إخفاء هذه المفاضلة حتى عن بعضهما بعضاً.

أضافت: «اقترحت عليه المجيء هو وسوزي لقضاء أسبوع عندنا، وأظنه بحاجة إلى راحة.. ولكنها بالطبع لا تقبل بها! تقول إن الجوبارد

هنا.. ولكن ماذا تتوقع من طقس نيسان؟ طقساً حاراً؟»

نظرت سيرينا إلى النافذة.. كانت السماء رمادية ملبدة بالغيوم.. ولكن بين الفينة والأخرى تتسلل أشعة الشمس وكأنها وميض ذهبي. إنه يوم ربيعي مثالي، رياحه شرقية ناعمة، تهب بين حقول نورفولك المنبسطة.. وسوزي مدينية لذا عندما ترغب في عطلة تطلب الاستمتاع بالحرارة على شاطىء رملي.. وتفهم سيرينا لماذا تكره سوزي حياة الريف الرتيبة بالرغم من أن ديوغ نشأ هنا ويحب نورفولك.

قال كيري: «لماذا لا تقصدين المدينة بضعة أيام أمي؟ ستكون على ما يرام هنا.. سيرينا بارعة في تجهيز الطعام المعلب».

رمته سيرينا بوسادة، فضحك لها.. نظر السيد برنتيس إلى زوجته، التي كانت تحيك الصوف بسرعة فائقة وجبينها مقطب:

ـ ما رأيك جوانا؟

ردت رداً غير حازم: «فلنذهب إذا أردت».

قال كيري لهما: «أظن أن عليكما أن تذهبا.. سوزي فتاة ساحرة وقد بدت مستاءة لأنك وأبي لم تزوراهما حتى الآن.. هذا الزواج يمر بأزمة ولكنكما ستكونان لبقين. أليس كذلك؟»

تلقى نظرة غاضبة من أمه، وابتسامة قلق من أبيه، أما سيرينا فرفسته ضاحكة وتمتمت: «انظروا من يتكلم عن اللباقة».

ضحك: «آسف أمي».

ـ هذا ما أظنه!

وقفت السيدة برنتيس: سأرى طعام الغداء.

أسندت سيرينا ظهرها إلى الخلف، مغمضة العينين، تصغي إلى صوت الريح وهي تعصف بالأشجار، وإلى قرقعة النيران في الموقد.

ظهر بندكت بعد الظهر متوتراً لأنه ينتظر سماع شيء من لانس ستوراي، كانت الريح قد توقفت، والمطر قد تلاشى. صفت السماء وسطعت الشمس فوق أزهار التوليب والديفوديلز في الحديقة.. خرج

السيد والسيدة برنتيس لتناول الشاي مع أصدقائهما.. أما كيري فاندفع يقترح على بندكت أن يلعبا الغولف.

سألها: «أتريدين مرافقتنا سيرينا؟ بإمكانك تسجيل الأهداف».

ردت بمرارة: «وأحمل لك العصي كما أعتقد؟ لا.. شكراً.. سأبقى هنا. أريد أن أغسل شعري».

قال وهي تغادر الغرفة: «النساء متوترات في هذه الأيام».

عندما كانت سيرينا تحضر الشامبو ومنشفة نظيفة، سمعت صرير الباب الأمامي الذي أقفله كيري. وبما أنها لم تكن تجد نفسها وحيدة في البيت إلا نادراً شعرت بالسعادة.

ما إن أنهت غسل شعرها وأوشكت على تناول المنشفة حتى سمعت جرس الباب الأمامي يرن. هناك شخص وضع أصبعه عليه بدون توقف فاعتقدت أن الأمر طارىء.. لفت المنشفة بسرعة حول رأسها وهرعت إلى الأسفل.

توقعت رؤية أحد إخوتها الذين يسارعون إلى منزل ذويهم عند حدوث شيء، ولم يخطر ببالها أن يكون الطارق هو لانس ستوراي.. عندما تعرفت إليه سرت موجة حارة حمراء في وجهها.

نظر إليها عابساً والفظاظة على خطوط فكه وفمه، قال وكأنه يلقي اتهامات من بين شفتيه الباردتين.

ـ قيل إنَّ رامسي هنا.

أدركت أنها لا ترتدي شيئاً إلا روب الحمام، لذا لم تستطع رفع نظرها إليه بل ازداد تورد وجهها.

ـ أجل.. إنه.. أعني.. لا.. ليس هنا في الوقت الحاضر.

حاولت لملمة شتات نفسها.. فسأل رافعاً حاجبه ببرود:

ـ لا؟

كان بندكت قلقاً جداً، لأنه لم يسمع شيئاً من لانس ستوراي لذا من المؤسف أنه خرج قبل نصف ساعة.. ستتصل بنادي الغولف طالبة منه

العودة فوراً.

قالت، متلعثمة:

ـ لينك تستطيع العودة بعد ساعة؟ أظنني سأجده لك.

ـ واثق أنك تستطيعين.

رفعت رأسها نحوه، فوجدت عينيه المثيرتين تطوف بها من رأسها إلى أخمص قدميها.. فهمت ما يدور في رأسه، فثارت غضباً.. إنه يعتقد أن بندكت معها في المنزل، أو بالأحرى في غرفة نومها!

صاحت به: «إنه يلعب الغولف مع أخي.. اذهب إلى ملعب الغولف تجدهما فيه أو اتصل بهما ليعودا بسرعة».

تغيرت تعابير وجهه قليلاً، وانتزعت المنشفة عن رأسها تاركة شعرها الأحمر الرطب يلتف حول وجهها، ثم هزته، ليرسل رذاذاً ناعماً من الماء المعطر إلى وجه لانس ستوراي..

قالت غاضبة: «كنت أغسل شعري».

ارتدت إلى الخلف وصفقت الباب في وجهه.

ولكن من سوء حظ لانس أنه خطا إلى الأمام ظاناً أنها تدعوه إلى الدخول فكان أن انغلق الباب على قدمه، سمعته يصيح ألماً.. ففتحت الباب مرعوبة.

ـ آه! أنا آسفة!

قفز لانس إلى الداخل على قدم واحدة، وجلس على كرسي:

ـ أنت قاتلة كصديقك!

وأخذ يدلك أصبع قدمه.. أقفلت الباب، تراقبه بريبة.

ـ هل انكسر شيء؟

وضع قدمه على الأرض، ووقف فوقها يختبرها:

ـ لا.. أظنها مرضوضة فقط.

تقدم خطوة أخرى، ثم أخرى، فحبست أنفاسها لأنها وجدته على مقربة شديدة منها. عندما ارتدت ومضت عيناه غضباً:

ـ لمَ أنت متوترة إلى هذه الدرجة؟ ماذا تظنينني سأفعل؟

نظر إلى الأسفل، إلى أطراف الروب الذي تمسكت به وشدّته لتخبىء ما قد يبدو.

قال ساخراً: «أنت بمفردك هنا؟»

ارتفعت عيناها مجدداً، ثم هبطتا بتوتر، وسألت:

ـ لِمَ تسأل؟

جعلها سؤاله تحس عميقاً بصمت المنزل.. كان أطول منها وأقوى مما تذكر. شعرت بأنها تواجه تهديداً لا تستطيع أن تحدده.. فما باله بحق الله؟.. أحست بحرارة عينيه القلقتين.. ثم قال بعدائية غريبة مكبوحة:

ـ أتساءل لماذا هذا التوتر إذ لم تكوني متوترة في كوخي.

قالت متمنية ذهابه: «سيصل والداي في أية لحظة».

ـ إذن أنت وحدك هنا؟

ولم يتحرك بل ظلّ قريباً منها بحيث استطاعت سماع خفقات قلبه، وأنفاسه غير المتناسقة.. بدا وكأنه جاء إلى هنا راكضاً مع الريح.

لماذا لا يذهب؟ لماذا ما يزال واقفاً هنا، يحدق إليها وكأنه لم يرها من قبل؟ أظهرت أشعة الشمس قسوة وجنتيه وقوتهما التي تعطي هاتين العينين عمقاً واسوداداً مركزين. لم تلاحظ من قبل شدة اسوداد عينيه. ما أعمقهما! تستطيع أن تنظر إليهما وكأنها تنظر إلى مركز الأرض العميق.

قال بذهول وهو يمد يده ليلمس خصلات شعرها الأحمر الرطبة المتدلية على وجهها، فأحست بقلبها ينقبض من الصدمة: «ألن تجففي شعرك؟».

تمتمت: «سأفعل بعد ذهابك».

أبعد يده بحدة، وكأن بشرتها أحرقته، ثم قال ممتقع الوجه.

ـ أجل.. طبعاً.. يجب أن أجد راسي.. في ملعب الغولف بالطبع.. أهذا ما قلتيه؟

ـ أجل.. أتعرف المكان؟ أجل بالطبع تعرف.. أنسى دائماً أنك تعرف بلاكستون خير معرفة.

حينما تحركت نحو الباب أسرع يمنعها من فتحه، ونظر إليها ليقول ببرود:

ـ لقد أعطيت مشكلة راسي قسطها من التفكير.. أنت على حق. إنه أثمن من أن أخسره.. ولكنه بحاجة إلى من يشرف عليه.. لذلك قررت العمل معه بنفسي فترة.

حبست أنفاسها: «في المختبرات؟»

ـ طبعاً.. وهل هناك مكان آخر؟ لا أراك سعيدة بهذا الخبر.. هل أملت أن تكوني أنت المشرفة عليه؟ حسناً.. لا أظنك قادرة على مراقبته.. لأنه سيبقى من بجري الاختبارات فأنت غير مدربة لتعرفي متى يقع الخطر. كما أنني أشك في أنه قد يصغي إلى نصيحتك على أي حال، ولكنه سيصغي إليّ طبعاً.

هزت رأسها لأنه على حق.. وقالت:

ـ لكن الأمر قد يأخذ أشهراً. ماذا عن عملك في لندن؟ أعني.. من سيدير مكتب لندن إن كنت ستعمل في المختبرات في نورفولك.

ـ أستطيع تدبر الأمر.. ما من مشكلة.

بدت الحيرة على وجه سيرينا إذ تذكرت أنه قال لها إنه يفضل العمل في المختبر على العمل في لندن ولكن لا خيار لديه فما الذي تغير؟

سألت: «هل ستعود للإقامة في بلاكستون إذن؟ وهل ستبدأ مشروعاً جديداً؟»

التوى فمه وقست عيناه:

ـ أشك في هذا.. عملت بأقصى قوتي، كان لدي أفكار كثيرة فالعلماء كالكتّاب. فهم مبدعون، وقادرون على تحديد ما يعرفون أو على توقع ما يمكن اكتشافه، ولكن لا يكون لهذا الاكتشاف دليل عندهم بل يقول لهم حدسهم إنه موجود.. ثم يضطرون الى العمل لإثبات

حدسهم.. وإثبات فكرة جديدة هو حدس بنسبة واحد على عشر وكفاح بنسبة تسعة أعشار ولكن يجف أحياناً للأسف حس الإبداع، ويذهب معه الحدس والمبادرة والسبب أن حواجز كثيرة تقف في عقله ثم يجد نفسه ينتظر على أمل أن يزول هذا الحاجز يوماً.

ـ ألهذا عملت في لندن في السنوات الأخيرة؟ أكنت تنتظر أن يزول الحاجز من عقلك؟

في سؤالها شيء من الشفقة إذ لم تشك في أن يعاني لانس ستوراي من مشاكل من هذا النوع..

هز رأسه، كان عرق صغير يتفض فوق خده النحيل.. شعرت بأنه يتمنى لو امتنع عن الإفضاء لها بما يزعجه، فهو رجل يكره الاعتراف بضعفه.

سألها ليغير دفة الموضوع:

ـ هل سأتمكن من الحصول على فنجان قهوة وسندويش في نادي الغولف؟ لقد جئت من المدينة بدون غداء، وبدأت أشعر بالجوع.

ـ أظنهم يقدمون الغداء هناك.. ولكنني لست واثقة مما يقدمون.. إن أردت أعدّ لك بعض الشاي واللحم فثمة بعض اللحم المعلب في البراد وبعض السلطة.. أترغب في انتظار بندكت هنا؟ سيعود مع أخي لتناول الشاي، ثم قد لا تلتقي بهم في الطريق إلى ملعب الغولف. إنهما لا يلعبان أكثر من ساعة.

تردد وفي عينيه وميض سخرية، ثم ابتسم:

ـ ألن أزعجك؟ ألن تخافي مني لأنك بمفردك معي؟

ارتدت على عقبيها نحو المطبخ، لتخفي احمرار بشرتها، وسألت من فوق كتفها وهو يلحق بها.

ـ شاي أم قهوة؟

ـ ما يناسبك.

ـ تحضيره سواء عندي.. فأيهما تفضل؟

ـ الشاي إذن.

راقبها تملأ الإبريق الكهربائي قبل أن توصله بالتيار.. قال: «لن تخبري رامسي عما قلته لك. أليس كذلك؟»

التفتت إليه مبتسمة بلطف: «بالطبع لن أخبره».

قطعت الخبز ثم أخرجت اللحم والسلطة. شعرت بأنه ينظر إليها معجباً بكل حركة تبدر عنها. فيم يفكر؟.. تعرف أنه لا يفكر فيها.

قال فجأة، وهي تضع طبق السندويشات على طاولة المطبخ:

ـ أحسد رامسي.. وربما هذا سبب قسوتي عليه.. فهو بحاجة إلى درس حاد مختصر.. إنه مهمل جداً.. ولكنني مغتاظ منه.. إنه بارع بل بارع جداً، أعتقد أنني أغار منه لأنني أفتقد إلى هذه المهارة في الوقت الحاضر. أعرف بما يشعر به، إنه الانفعال والتفكير وضغط تسجيل كل شيء على الورق، وانتظار نتيجة ما إذا كان مصيباً أم مخطئاً.. أجل.. لا أستطيع سوى أن أحسده.

قالت سيرينا محتجة: «لكنك قمت بأعمال رائعة من قبل!»

بدا متجهماً: «نعم كان ذلك في الماضي ولكنني لا أدري إذا كنت قادراً على الانطلاق من جديد. ظننت أن المسألة مسألة سنة أو اثنتين ولكنني انتظرت مدة أطول من ذلك وبت أكره فكرة ألا أكون سوى مدير أعمال. أكاد أختنق في لندن».

أمعنت سيرينا به النظر عابسة:

ـ ألهذا انتقلت إلى لندن؟ لأن الأفكار نفذت واندفاعك خفّ؟

ـ وجدت نفسي أقوم بإدارة أعمالي لأنني لم أكن أستطيع الثقة بأحد.. أما الآن فلدي فريق ماهر يعمل معي هناك. وبت قادراً على تسليم عملي إلى نائبي بدون الشعور بوخز الضمير. لقد مضت أربع سنوات منذ أجريت آخر أبحاثي، ولا أدري إن كنت قادراً على العودة.

جلست تسكبُ له فنجان الشاي فقال لها:

ـ شكراً لك.. هذا لطف كبير منك.. أنا جائع فعلاً.. نسيت أن

آكل . . هذا غباء مني .

ـ هلا عذرتني، أريد تجفيف شعري وارتداء ثيابي؟

ـ بالطبع .

تركته سيرينا يتناول وجبته بهدوء. بعد ربع ساعة انضمت إليه فوجدته قد أنهى سندويشاته ووقف أمام نافذة المطبخ يتأمل الحديقة مراقباً طائر أبي الحناء . . التفت إليها عندما دخلت . كانت خطوط وجهه القاسية، هادئة ناعمة، وكأنه ينعم بالراحة .

قال وكأنه يهنئها : «كنت سريعة» .

طافت نظرته عليها بدءاً من شعرها البراق وصولاً إلى فستانها الكحلي ذي الياقة البيضاء . هذا الفستان محتشم جداً لذا أطلق عليه كيري اسم «زي المدرسة» ولكن تناقضه مع شعلات شعرها الأحمر ومع عينيها الخضراوين كان يجعل الرجال ينظرون إليها أكثر من مرة . . لم يكن على عجلة من أمره وهو يتأملها . بعد إمعانه الشديد فيها تمتم بفظاظة : «تبدين شديدة الاحتشام» .

ردت ضاحكة : «تناقض في المواقف؟»

ـ كلك تناقضات .

تذكرت فجأة كلاريسا هوارد فتلاشت البسمة عن وجهها :

ـ كيف حال خطيبتك؟

بدا مشدوهاً وكأنه نسي أمر كلاريسا، رفرف أهدابه السوداء، ثم عبس :

ـ لم أرها منذ وقت طويل . . منذ سافرت إلى بروكسل . يجب أن أتصل بها على ما أظن .

شعرت سيرينا بالراحة عندما سمعت صوت المفتاح يدور في قفل الباب الأمامي، ثم أصوات كيري وبندكت اللذين دخلا بمرح وصخب . . لقد وصلا في اللحظة المناسبة . .

قالت : «سأتركك تتحدث إلى بندكت . . إذا شئت تحدث إليه في

غرفة الجلوس . . »

تحرك لانس نحو الباب أما سيرينا فجلست إلى الطاولة مشغولة البال . . لقد نسيت أنه مخطوب لامرأة أخرى . . يا لها من غبية! يجب ألا تنسى ذلك مرة ثانية!

* * *

٧ ـ يقرأ أفكارها

في اليوم التالي رأت سيرينا بندكت في المطعم داخل المختبرات.. كان يتناول الصحن اليومي الرخيص، الأرز بالقريدس والكاري، وهو ساهم لذا عندما انضمت إليه انتفض مذعوراً فضحكت.

ـ هذه أنا فقط.. من ظننتني؟

أخفض صوته إلى درجة الهمس السري:

ـ إنه هنا.. يراجع مذكراتي وملاحظاتي، ويدأب على طرح الأسئلة علي.. جئت لأتناول الغداء حتى أبتعد عنه. لا أدري إن كنت سأقوى على العمل معه في النهاية.. الرجل مرعب.

ردت بهدوء: «إنه مشروعك، وإن لم يكن مؤمناً بقدرتك فلن يكون مستعداً للعمل معك.. هذا إطراء كبير لك بندكت».

اختارت جبنة ريفية وسلطة أناناس. راقبها بندكت تتناول طعامها وعلى وجهه عدم اقتناع.

ـ لا بأس بهذا عندك، لأنك غير مضطرة لمواجهته.. أما الأمر بالنسبة لي فأشبه بخلع الضرس بلا مخدر.. لا أصدق أن هذا يحدث لي. ما اعتقدته يصرّ على مراقبتي بنفسه.. أشعر الآن وكأنني عدت إلى المدرسة. لا، بل أنني بدأت أتساءل عما إذا كانت أبحاثي هي مجرد حلم.

ـ لا تكن سخيفاً..

نظرت إلى من في المطعم، فرأت ليزا كرابس على طاولة أخرى

تشرب قهوتها. لوحت لها بتهور فتقدمت ليزا إليهما تحمل فنجانها بحذر.

سألتها سيرينا بحبور: «ألم تري الرئيس الكبير ليزا؟»

هزت الفتاة رأسها، وعيناها على بندكت:

ـ لا.. ولكنني أظن أن من اللؤم أن يدخل إلى هنا ويستولي على أبحاث بندكت.

أعادت النظر إلى بندكت: «لقد قمت أنت بكلّ الأبحاث الأساسية، وها هو الآن ينتزع منك المجد».

إنها فتاة جميلة ولكن وجهها ليس مما يذكره المرء دائماً. إذ تضفي عليها بشرتها البيضاء الوردية وشعرها الأحمر مظهر الدمية.

هز بندكت كتفيه محاولاً أن يكون لا مبالياً: «إنه متسلط».

واقفت ليزا: «أوافقك الرأي. وأنا من كنت أظنه مثيراً! كاد يخدعني فعلاً.. ولكنه لا يعجبني أبداً الآن».

مازحتها سيرينا: «ظننته يسبب لك الدوار».

ازداد تورد ليزا:

ـ كان ذلك قبل أن أرى أنه يشبه الأفعى! إن ما يفعله لمخجل!

نظرت إلى بندكت بإشفاق؛ فسارعت سيرينا إلى تغيير دفّة الحديث.

ـ هل شاهدت فيلم سينما الأوديون؟ قال كيري إنه رائع.. شاهده يوم الأربعاء.. أردت الذهاب ولكنني كنت مشغولة.

قالت ليزا: «وأنا أيضاً أردت مشاهدته. آه! لقد نسيت، هل استمتعت بحفلة الزفاف يوم السبت؟ هل سار كل شيء على ما يرام؟»

ـ جرى كل شيء على ما يرام ولم يعكر جو العرس إلا نسيان الإشبين الخاتم.

أنهت السلطة، أما بندكت وليزا فراحا يتكلمان عن الزفاف وعن حفل الاستقبال الذي تلاه. نظرت سيرينا إلى ساعتها ثم هبّت واقفة:

- آه، لقد نسيت.. يجب أن أقوم بفحص شيء ما في تمام الثانية.. يجب أن أسرع.

وقفت ليزا على مضض لترافقها ولكن سيرينا رمتها بابتسامة وقالت:

- إنهي قهوتك ليزا!

وخرجت من المطعم، تاركة ليزا مع بندكت، وعادت إلى المختبر.. إنها لا تكذب.. فهي مضطرة إلى القيام بسلسلة من الفحوصات على تجربة زراعية.. ولكنها في الواقع أرادت ترك ليزا مع بندكت بمفردهما وذلك لتقوم بتجربة خاصة لها.

ربما لم يلاحظ بندكت وجود ليزا من قبل كثيراً.. ولكن سيرينا أرادت أن ترميهما في طريق بعضهما بعضاً من الآن وصاعداً.. ظنت أنها بذلك تدفع بندكت إلى دعوة الفتاة للخروج معه. هو معتاد على أن تقوده أمه، ولكنه عُرضة أيضاً إلى الوقوع في الحب. ألم يجعل دعم ليزا الحار له عينيه تومضان؟ تعرف سيرينا أن الفتاة معجبة به.. فهو على أي حال بهي الطلعة، شاب نشيط رياضي، فطالما جذبت خصلات شعره الصفراء وعيناه الزرقاوان وكتفاه العريضتان إعجاب الإناث به، ولكن الطريقة التي يلتصق بها بسيرينا كانت تمنع عنه الفتيات وتمنع عنها هي الشبان.

إن أرادت سيرينا إبعاده عنها فعليها أن تشغله بفتاة أخرى وعلى ما يبدو أن ليزا فتاة طيبة، رقيقة القلب.

فيما كانت تعاين العينات تحت المجهر تساءلت بقلق عما إذا كان لانس ستوراي يدرك مدى سخط بندكت لأنه خسر السيطرة على مشروعه الخاص. كان بندكت قد نسي تماماً سبب مجيء لانس إلى هنا ليشرف على المشروع.. لقد دفن كل ذكرى لها علاقة بالانفجار أو بطرده وأكثر ما تخشاه أن يندم لانس على السماح له بالبقاء في العمل.

كانت وحدها في المختبر، تدخل نتائج الفحوصات بدقة إلى الكومبيوتر عندما سمعت صرير الباب فألقت نظرة من فوق كتفها وإذا بها تجد لانس ستوراي خلفها. كان يرتدي معطف العمل الأبيض، الذي بدا

فيه مختلفاً كل الاختلاف.

سألها باقتضاب: «رامسي هنا؟».

هزت رأسها نفياً.. ألا يرى أنه غير موجود هنا! فلماذا يسأل؟ تمنت لو تستطيع الرد: أتظن أنني أخبئه على الرف؟ ولكن ما رأته على وجه لانس أنبأها بأن عليها أن تضبط لسانها.

دس يديه في جيبي معطفه الأبيض، وفمه مضموم، فسألت بلهفة: «هل من خطب؟»

بدا غاضباً: «لا ينفك عن الاختفاء، وكلما نظرت حولي أجده غائباً.. بماذا يظن أنه يلعب؟ أحتاج إلى مراجعة الملاحظات معه، فخطه ليس أسهل خط في العالم للفهم.. لا أستغرب وصوله دائماً إلى نتيجة خاطئة، إنه يسجل أرقاماً عشرية بلا نظام أو تفسير، ويختزل شروحاته».

دارت سيرينا بمقعدها المرتفع الدوار، ثم مررت يدها بشعرها.. وقالت بهدوء: «أفهمه، يجد بندكت أن من الصعب عليه أن تتولى أنت العمل نيابة عنه، أمهله بعض الوقت ليعتاد على الفكرة..»

سألها بلسان ساخر: «أهكذا ترينه؟».

سحبت نفساً حاداً: «أراه ماذا؟»

- ترينه سهل الانقياد؟ أنت تجعلينه يأكل من يدك. ألا تجدين أن هذا النوع من العلاقات تافه أم تراك ممن يحب التحكم بالبيت؟».

ارتفعت نظرته إلى شعرها المعقوص الذي حولته الشمس إلى تاج برّاق وقال: «لا شك أن السبب هو هذا الشعر الأحمر».

لقد شعرت سيرينا على لانس بالإشفاق عندما اعترف لها بأنه لم يتمكن من التوصل إلى أية فكرة مبدعة منذ أربع سنوات، ولكنها الآن أحست بأن عدائيتها الأصلية تجاهه بدأت تبرز في نفسها من جديد، ليس من السهل أن يتعاطف المرء مع هذا الرجل القادر على أن يبعث القشعريرة في الأعصاب.

قالت ببرود وهي تستدير إلى الكومبيوتر:

ـ إن حاولت البحث في المختبرات الأخرى وجدته في إحداها.

لكنه لم يذهب، بل اقترب ومال إليها لينظر إلى شاشة الكومبيوتر التي سجلت عليها نتائج فحوصاتها.. ولكنها انتفضت لأن خده كاد يلامس خدها.

ـ ما هذا؟ الأبحاث عن الأعشاب؟

هزت رأسها بدون أن ترد ذلك أن جسمها تشنج بسبب التفاف إحدى ذراعيه حولها، فيما استقرت الأخرى على الرف البلاستيكي الصلب المرتكز عليه الكومبيوتر. راقبته بطرف عينها يلقي نظرة سريعة على الأرقام في الشاشة.. كانت أشعة الشمس تظهر مسامات بشرته، وقسوة عظام وجهه تحتها.. والتواء فمه وخط فكه الرجولي القوي.. هذا ليس وجهاً يمكن صرف النظر عنه أو نسيانه بسهولة.. إنه جدير بالذكرى، مثير للاضطراب.

تمتم: «نتائج هامة».

ردت بفظاظة: «أظننا على جادة الصواب».

كانت تأمل ألا يسمع تصاعد نبضات قلبها.. من الغباء الإحساس هكذا برجل.. حوّل وجهه إليها:

ـ لدى العرب اهتمام كبير بهذه المسألة. ففي الصحراء يطير العشب قبل أن يمدّ جذوره بثبات.. لو استطعنا حل المشكلة بإيجاد عشب قادر على العيش في الرمال بدون أن يطير مع كل هبة ريح قوية، لحققنا إنجازاً حقيقياً، هذا عدا ذكر المكاسب!

وابتسم لها.. فردت وهي تحاول أن تبدو هادئة:

ـ ما زال أمامنا تجارب كثيرة حتى نصل إلى هذه النتيجة.

تساءلت بينها وبين نفسها عما إذا كانت مجنونة لأنها تشعر بأن هناك، رغم حديثه عن تجارب علمية، حواراً مختلفاً يجري على مستوى آخر.. كانت عيناها ترفضان الابتعاد عن تأمله.. وكانت بشرتها،

ودمها، يشعران بوجوده.

نظر إليها أيضاً فإذا ناظراه يومضان كسائل أسود لمّاع في نور الشمس.. ككهرمان سائل جعل الحدقة الرمادية تبدو مظلمة.

ـ أوه.. بالطبع.

راقبت فمه يتحرك وهي لا تكاد تسمع ما يقول: «أتستمتعين بعملك؟»

سرعان ما عادت إلى واقعها فتمكنت من هز رأسها إيجاباً. وقالت: «كثيراً.. أكره أن أعمل في مكان آخر».

بدا صوتها جافاً، غير مألوف وغير مستقر. بللت شفتيها متوترة.. انخفضت عيناه إلى شفتيها، فشهقت شهقة خفيفة.

دخل أحد عمال المختبر إلى الغرفة، فاستقام لانس وتغيّر وجهه:

ـ سأفتش عن رامسي في مكان آخر إذن.

قال له الرجل الآخر بسرعة إن بندكت في حديقة التجارب: «شاهدته منذ برهة يدخل إلى الغرفة الزجاجية».

شكره لانس ثم ابتعد.

في الرابعة والنصف، نزلت سيرينا إلى المطعم لتناول الشاي وهناك شاهدت كريستي ريفز جالسة على طاولة قريبة، تأكل سندويشاً وكأنه مصنوع من نشارة الخشب إذ كان وجهها النحيل الشاحب، متوتراً بشكل واضح. انضمت إليها سيرينا فكان أن حصلت على نظرة حادة.

ـ آه! هذه أنت!

صممت ألا ترهبها تصرفات كريستي غير المرحبة فقالت:

ـ أجل.. أريد محادثتك.

ـ لست في مزاج يسمح لي بالإصغاء إلى توسلات أخرى لمصلحة صديقك الشاب.. لقد سبّب ما يكفي من متاعب.

أنهت سندويشها ودفعت الصحن بعيداً عنها.

ـ ولكن ليس هذا ما أريد محادثتك عنه.. أريد معرفة سبب لحاقك

بي وبالسيد ستوراي إلى ذلك الكوخ وانتزاعك الفحمة من موزع كهرباء سيارته.

شاهدت سيرينا عيني الفتاة تجفلان: «من قال إنني فعلت ذلك؟»

- إنك الفاعلة بدون شك.

ردت كريستي: «لا أعرف عما تتكلمين»

- بل تعرفين! أعرف أنك أنت من انتزع الفحمة ولكنني أريد أن أعرف السبب!

هبّت كريستي واقفة: «أنت مجنونة».

أمسكت سيرينا ذراعها:

- أتريدين أن أخبر السيد ستوراي من ساعدني في الاختباء داخل سيارته، ومن أبلغ كلاريسا هوارد عنوان الكوخ؟

نظرت كريستي إلى سيرينا بكراهية ظاهرة.

- أيتها الساقطة الحقيرة.. ! لن يصدقك.. سأقول له إنها أكاذيب.

- أوه.. أظنه يصدقني خاصة إذا اعترفت كلاريسا بأنك أعطيتها العنوان!

ترددت كريستي ثم عادت إلى الجلوس فجأة، ومالت على الطاولة لتتمتم:

- ليس لديك دليل على ذلك، أما وعدتني بعدم التفوه بكلمة؟ لقد ساعدتك.. فلماذا تبالين؟ أما استعاد صديقك وظيفته؟ ماذا تريدين أكثر من هذا؟

قالت كاذبة: «إنه الفضول ليس إلاّ».

لكن الأمر أكثر من هذا، فهي بحاجة إلى التأكد من أن كريستي هي التي انتزعت الفحمة من السيارة، لتبقيها مع لانس في الكوخ.

هزت كريستي كتفيها النحيلتين ثم عضت على شفتها السفلى:

- حسناً، أنا من انتزع الفحمة وأنا من لحق بك ولانس.. كنت أعرف العنوان.. اكتشفته منذ سنوات طويلة. ولكنني لم أدع أحداً

يكتشف أنني أعرفه، كان مصمماً على الاحتفاظ به سراً. أعرف أنه سيغضب كثيراً إن عرف أنني اكتشفته.. لانس غريب الأطوار بالنسبة لخلوته.

في عينيها اسوداد عميق جعل سيرينا تشفق عليها. أردفت بلطف وهدوء:

- عطلت السيارة لتتأكدي من وجودي هناك عند وصول كلاريسا هوارد.. أليس كذلك؟

شاهدت موجة احمرار قاتم تغسل وجه كريستي:

- وماذا في ذلك؟ إنها لا تناسبه. لن تجعله سعيداً فهي مدللة سافلة، أنانية.. سيكون بائساً معها لأنها لا تهتم إلا بالمال وبنفسها أما به فلا تعبأ أبداً.

أخاف سيرينا العذاب الذي لمحته على وجه المرأة الأخرى. ارتجفت كريستي بعنف فقالت سيرينا:

- ماذا إن كان يحبها..

قاطعتها: «يحبها؟ بالطبع لا يحبها! إنها ليست من طرازه.. فليس في رأسها سوى إنفاق المال وشراء الثياب.. أما لانس فعبقري. ترى هل يمكن لإنسان مثله أن يكون سعيداً مع فتاة مثلها؟»

نظرت سيرينا إلى يديها لأنها لم تستطع تحمل رؤية هذا التعبير في عيني كريستي. كانت كل كلمة تقولها تفضحها.. تفضح مشاعرها نحو لانس ستوراي، أيعرف ما تشعر به؟ تذكرت سيرينا فجأة أن بندكت قال شيئاً عن شعور كريستي بالتملك تجاه رئيسها.. وما دام ذلك واضحاً لبندكت فهذا يعني أنه واضح للانس..

تمتمت سيرينا: «لكنه طلبها للزواج.. فلماذا يقدم على ذلك إلا..»

قاطعتها بمرارة:

- إنها ثرية، أليس كذلك؟ والدها هو من أقنع لانس بطلب يدها..

لقد سمعته بنفسي يلقي تلميحات مفهومة واضحة عما سترثه ابنته عندما تتزوج وعما سيقدمه إلى صهره.. ولا شك في أن لانس فهم قصد هوارد العجوز..

- وهل كان مستعداً إلى أن يبيع نفسه؟

.. التوى ثغر سيرينا قرفاً واشمئزازاً، لم تظن أن لانس ستوراي قد ينزل إلى هذا الدرك. لقد تساءلت عما يجده رجل مثله في شقراء سامة ككلاريسا هوارد.. ولكنها لم تشك قطّ في أنه يتزوجها من أجل مالها.

أردفت غاضبة: «وما الذي دفعك إلى التدخل؟ اتركيه يبيع نفسه، ما دام هذا ما يريده».

تمتمت كريستي: «لا أستطيع.. كان على أحد أن ينقذه».

- لا يريد الإنقاذ! ولم تنجحي على أي حال.. فقد دفعني للاختباء فلم تعرف أنني هناك.

ضاقت عينا كريستي:

- ألم ترك؟

- لا.. فقد شاهد السيد ستوراي سيارتها الرولز تقترب وجعلني أختبىء حتى رحلت.

سحبت كريستي نفساً ثقيلاً ونظرت إلى الفراغ بصمت، ثم قالت:

- لقد تساءلت كيف استطاع إقناعها.. لم أره منذ أسبوعين، لأنه كان في بروكسل، وما إن عاد حتى سلم المكتب إلى نائبه وعاد إلى هنا.

شدت قبضتيها، وأنزلتهما إلى حجرها بعيداً عن النظر:

- أنا أعمل مع شخص آخر الآن، قال لي إنه لا يحتاج إلى سكرتيرة في الوقت الحاضر، ونقلني إلى العمل مع رئيس جديد في لندن.. جئت إلى هنا فقط لأنقل إليه بعض الرسائل والأوراق ليوقعها، وعلى ما أعتقد أنني لن أراه مدة طويلة.

كانت كل كلمة مشحونة بالألم، وهذا ما أشعر سيرينا بالاضطراب.. ولكن ماذا تقول لها؟ لا تستطيع أن تقول: أنا آسفة..

مع أنها آسفة حقاً، ولسوف تكره كريستي نفسها لما فضحت من مشاعر مكبوتة.

وقفت كريستي وبدون أن تضيف كلمة أخذت حقيبتها وقفازيها البنيين، ثم قالت لسيرينا ببرود: «عليّ أن أذهب. لن تقولي للانس شيئاً؟»

كان كلامها مزجاً غريباً بين الأمر والرجاء.. ولكن قلب سيرينا لم يطاوعها حتى ترفض ما طلبت.. فهزت رأسها نفياً، عندئذ ابتعدت كريستي، وهي تضرب الأرض بعقبي حذائها، راقبتها سيرينا حتى اختفت عن الأنظار ثم قالت لنفسها ليتني لم أرها قط وليتني ما سألتها عن فحمة السيارة المسروقة.. كان عليها أن تتجاهلها وأن تدع الكلاب نائمة.. فلو فعلت ذلك لما أخذت فكرة كريهة عن لانس ستوراي.. هل هذا صحيح؟ هل تقدم لكلاريسا بسبب غنى والدها؟ غير أن ما سمعته لا ينسجم مع كل ما تعرفه عنه فهي لا ترى أن لانس ستوراي من صائدي الثروات أو من الانتهازيين. إنه مثير، قوي، مستبد.. ولكنها لم تشك في أنه يقدم على الزواج بكلاريسا هوارد من أجل مالها. والآن بعد ما سمعته من كريستي تشعر بأنها لا تريد رؤيته قبل مدة طويلة.

ظل لانس طوال ذلك الأسبوع مشغولاً جداً مع بندكت في المختبر.. وقد تمكنت سيرينا من الابتعاد عنه.. كان لديها روتين يومي ثابت، لا يتغير إلا بعد ترتيب مسبق مع زملائها في العمل، ممن يحلون محلها في مختلف مراحل عملها.. إنه روتين هادىء، لم يقتحمه عليها ولله الحمد. أما بندكت فبدا أنه تقبل الذي لا بد منه، وبانت غير مضطرة للإصغاء إليه أيضاً ثم تساءلت إن كان ينقل أحزانه إلى ليزا كرايس الآن؟

يوم الجمعة اضطرت إلى الطلب من أخيها أن يقلها إلى عملها، لأن سيارتها في الكاراج.. لم يكن كيري قادراً على إعادتها ذلك المساء.. ولكن بندكت وعدها بأن يقلّها.. في الساعة الخامسة مساء، بدأ المطر ينهمر فراحت سيرينا تراقب السماء وهي تظلم، متسائلة عما إذا كان

عليها المخاطرة بالذهاب إلى المختبر حيث لانس ستوراي وذلك لتذكر بندكت بأن عليه أن يقلها أم أن تنتظره أمام المدخل، على أمل ألا ينسى.. وهو أكثر من قادر على النسيان، فرأسه كالمنخل.

لم تجلب سيرينا معها معطفاً واقياً من المطر، أو مظلة.. وها هي بزتها الصوفية معرضة للبلل من المطر المنهمر الذي تراه عبر النوافذ.. عندما تأخر بندكت، ذهبت على مضض فنظرت داخل المختبر وهناك شاهدت رأس لانس ستوراي منكباً على مجهر.. أما بندكت فلم تجد له أثراً بل لم تجد لأي شخص آخر أثراً إذ يذهب الجميع باكراً نهار الجمعة.

بدأت سيرينا تقفل الباب بهدوء، ولكن لانس ستوراي سمع الصوت الخفيف، فالتفت فجأة لينظر إليها. فتمتمت:

ـ آسفة.. لم أقصد إزعاجك.. أبحث عن بندكت.

ـ غادر منذ عشر دقائق.

شهقت على غير إرادتها.. لقد نسي أن عليه أن يقلها إلى المنزل! ارتفع حاجبا لانس: «ما الأمر؟»

ـ لا شيء.. فلأسرع قد أجده في موقف السيارات.

ثم هرعت إلى الممر راكضة وعندما وصلت أمام الباب الزجاجي المتحرك المفضي إلى موقف السيارات، رأت أن سيارة بندكت غير موجودة هناك.. وفي الواقع أن لا سيارة فيه غير سيارة واحدة، نظرت إليها بتجهم لأنها سيارة لانس ستوراي. عادت سيرينا متجهمة الوجه، تبحث عن هاتف.. ستتصل بكيري وتطلب منه المجيء لاصطحابها.

التقاها لانس في الممر. كان يرتدي معطفاً واقياً بنياً وكانت ياقته مرفوعة حول وجهه.

ـ هل وصل رامسي؟

نظر من فوقها إلى موقف السيارات السابح بالمطر. هزت سيرينا رأسها بدون أن تنطق بكلمة فسأل: «أليس معك سيارة؟»

يا لذكائه! من الواضح أن لا سيارة في الموقف إلا سيارته.

ـ سيأتي أخي ليصحبني، لا يقفل حارس الموقف الأبواب قبل السادسة والربع، وسيصل كيري حتى ذلك الوقت.

ـ سأقلك إلى منزلك.

ـ لا حاجة بك لإزعاج نفسك. سيرحب كيري بإيصالي وهو في طريقه إلى البيت.

نظر إليها نافد الصبر:

ـ لماذا تجادلين كثيراً؟ أنت تضيعين الوقت. هل أنت مستعدة للخروج الآن؟

لا شك أنه قرأ الرد على وجهها، فامتدت يده تمسك ذراعها، ليقودها نحو الباب المتحرك، وقال:

ـ انتظري هنا حتى أحضر السيارة لئلا تبتلي.

وقفت في الردهة، تراقبه بركض على الإسفلت.. شعره يتبلل ويلتصق برأسه ومعطفه يزداد اسوداداً بفعل المطر المنهمر. ما إن وصل إلى السيارة حتى أضاء مصابيحها التي قضت على الظلمة وما هي إلا لحظة، حتى توقفت السيارة أمام المبنى فهرعت سيرينا إلى الخارج لتصعد إلى جانبه.

راقبها لانس، تربط حزام الأمان حولها، وأخذ القفل المعدني منها ليثبته في مكانه.. ولكن سيرينا انتزعت أصابعها بحدة حالما شعرت بأصابعه تلامسها. ولم يعلق لانس، لكنه نظر إليها يراقب الاحمرار على وجهها.

أخرج السيارة من الموقف ثم انعطف يساراً، ليدخل بسيارته إلى زحام السير البطيء..

سألته بعد لحظة:

ـ أتعيش في الكوخ وأنت هنا؟

هز رأسه: «إنه أبعد من أن يتنقل المرء منه وإليه.. لا.. لقد

استأجرت شقة قرب «هولم بارك».

قالت بدهشة: «إنه قريب من منزلنا».

ـ أعرف.. فقد ولدت هنا، أتذكرين؟ أعرف بلاكستون عن ظهر قلب.

أكمل سيره بصمت فترة ناظراً عبر المساحتين إلى الطريق المظلم.. ثم قال فجأة:

ـ ما أروع العودة..

ـ كان لعائلتك مزرعة هنا.. أليس كذلك؟

ـ كانت وما زالت. مات والدي في العام المنصرم ولكن أخي الصغير ما زال يزرع الأرض.. إنها مزرعة مختلطة فيها جزء للزراعة، وجزء للخراف.. تعطيه المزرعة إيراداً جيداً ولكن العمل فيها شاق.

ـ ألم ترغب في الزراعة؟

ابتسم بخبث: «رغبت دوماً في أن أكون عالماً.. أنا من القلائل الذين عرفوا ما يريدون وحصلوا عليه».

تنهدت: «أجل».

إنه فعلاً رجل يجري وراء ما يريد. لا حاجة به إلى أن يقول لها هذا فهو مسطور على جبينه وعلى كل خط من خطوط جسمه النحيل القوي.

نظر إليها بسرعة: «وماذا عنك؟ أتعملين فيما ترغبين فيه؟»

ترددت: «كنت دوماً أحب العلوم».

ـ ولكنك لم ترغبي أن تصبحي عالمة؟ لم تذهبي إلى الجامعة للدراسة، أليس كذلك؟ ألم ترغبي أم...

ردت باختصار: «لم نستطع تحمل النفقات».

ـ بسبب كثرة عددكم.

إنه ذكي فعلاً وخبيث، يقرأ ما بين السطور، ويسمع ما لا يقوله الناس له.. عندما لم ترد عليه أبعد يده عن المقود، ولامسها بخفة.

ـ أنا آسف.

انتفضت ثم نظرت إلى الخارج جامدة، فأبعد يده عنها، وبعد صمت قصير تمتمت سيرينا:

ـ كان هذا قراري.. كانا سيتدبران المال لو أردت ذلك. ولكنني كنت الصغرى ولأن على والديّ عبئاً كبيراً لم أستطع دفعهما إلى التقتير والادّخار مدة ثلاث سنوات أخرى.

ـ علاقاتكم العائلية وطيدة.

شعرت بالراحة عند وصولهما إلى الشارع فذلك يعني أن مأزقها سينتهي بعد لحظات. كان وجودها بمفردها في سيارة لانس ستوراي تجربة مخيفة.. فله تأثير كبير فيها وفي نبضاتها حتى عندما يكون لطيفاً معها.

ـ نعم علاقتنا وطيدة، لدي والدان رائعان.

أوقف السيارة خارج البوابة، وأخذ ينظر إلى المنزل بفضول.

ـ يجب أن ألتقي بهما يوماً.

انتفضت بدون قصد فقد أرعبتها فكرة أن تراها عائلتها وهي معه.. يعرفونها خير معرفة وهذا ما سيجعلهم يرون أنها ليست غير مبالية به أبداً. إنها لا تطيق أن يسألوها، أو يراقبوها، أو يبتسموا لها.

نظر إليها لانس بقسوة: تفضلين ألا ألتقي بهما.. أليس كذلك؟

كيف يتمكن من قراءة أفكارها هكذا؟ حاولت وضع قناع على وجهها لا يستطيع اختراقه، حتى بعينيه الخارقتين.

تورد وجهها ثم قالت: «لم أقل هذا..»

قاطعها بحدة: «لست بحاجة للقول.. إذ لا يصعب تفسير ما تفكرين فيه. وجهك يفضح أفكارك».

فكت حزام الأمان وقالت بجفاء:

ـ أشكرك لأنك أوصلتني سيد ستوراي.. ما ألطف أن تتحمل العناء من أجلي.

أمسك ذراعها وهي تحاول النزول من السيارة.

ـ أتحب عائلتك رامسي؟

استعدت للهرب حالما يرخي قبضته عنها:

ـ إنه أفضل صديق لأخي كيري. هما صديقان منذ الطفولة.

ـ ويريدون أن تتزوجي به؟

هزت رأسها بغضب:

ـ لم يثيروا الموضوع يوماً!

قال ووجهه ساخر:

ـ لكنهم يستمرون في دفعك على هذا الاتجاه.

كرهت السخرية في ابتسامته:

ـ لا يفعلون شيئاً من هذا القبيل! بندكت صديق العائلة ليس إلا.

قال ساخراً: «إنه مجرد صديق.. صديق مقرب.. لماذا لا أصدق هذا؟»

صاحت غاضبة: «كيف أعرف لماذا لا تصدق؟ ولا أهتم أصدقتني أم لم تصدقني.. على أي حال ما الذي يجعل حياتي الخاصة شأن من شؤونك؟ أنا لا أعلق بكلمة على خطيبتك، لأنني أهتم بشؤوني، حتى ولو..

سيطرت على نفسها وعضت على شفتها قبل أن تتفوه بالملاحظة الحادة التي كانت ستطلقها بحق كلاريسا هوارد..

شدها إليه لتواجهه وعيناه ضيقتان بارقتان:

ـ حتى ولو.. ماذا؟

أطرقت رأسها بتمرد ثم مررت يداً مرتجفة على شعرها الأحمر الرطب قليلاً.

ـ لا شيء.. دعني أذهب. يجب أن أدخل وإلا ظنت عائلتي..

سأل ساخراً: «ماذا سيظنون؟ أنني أغازلك؟»

كافحت للسيطرة على احمرار وجهها:

ـ لن يظنوا شيئاً من هذا القبيل.

ـ أتجلسين عادة مع رامسي في سيارته عندما يقلّك؟

جعلها السؤال الفظ ترفع رأسها متسعة العينين من فرط الذهول..

كان لانس على مقربة شديدة منها، منحنياً فوقها ويداه تثبتان كتفيها إلى المقعد، وعيناه مستقرتان على وجهها.

تمتم: «بالله عليك ماذا ترين فيه؟»

فقدت سيرينا تفكيرها.. فقد أربكها قربه منها ولكنها ارتدت قليلاً وهمست تدفعه عنها:

ـ لا..

سمعته يتنفس بحدة:

ـ لا.. ماذا؟ لا أفعل هذا؟

ثم عانقها حتى قبل أن تستطع إبعاد رأسها. شعرت بأن كيانها كله قد انشل.

أغمضت عينيها وقد فقدت القدرة على التنفس والتفكير.. بدّد قربه منها قواها.. انتزع منها تجاوباً لم تتمكن من السيطرة عليه أو من إخفائه، ثم ارتفعت ذراعاها حول عنقه.. كان عناقه عذباً، مغرياً شعرت خلاله بأصابعه تعبث بشعرها.

لم تعرف سيرينا قط مشاعر شرسة مؤلمة كهذه. الآن عرفت أن كيانها بحاجة إليه ولكن مشاعرها كانت تخيفها إلى حد الجنون.

رفع لانس رأسه ناظراً إليها من بين عينين نصف مغمضتين. كانت مذهولة مرتجفة، وقد امتد الصمت بينهما.. صمت كان يقول أكثر مما قد تقوله الكلمات المعبّرة عن قوة ما يشعره جسداهما.

لم تستطع سيرينا تحمل الموقف.. فدفعته عنها وهي تكاد تبكي، وقبل أن تعرف ماذا تريد أن تفعل، كانت خارج سيارته راكضة إلى منزلها، وجسمها يرتجف من رأسها حتى أخمص قدميها.

* * *

٨ ـ هل الحب إلا جنون؟

دخلت سيرينا إلى المنزل متهاوية وتوجهت رأساً إلى أبيها، الذي أمسك بها يهدئها ضاحكاً. . ثم لمّا نظر إلى وجهها تغير وجهه وأصبح قلقاً.

ـ ما خطبك سيري؟

نظر إلى الباب المفتوح فرأى سيارة لانس تنطلق:

ـ من هذا؟ ماذا فعل بك؟

سرعان ما ثار قلق السيد برنتيس وجنحت مخيلته وقفزت إلى استنتاجات لا يعرفها إلا الله. تصاعدت نظرة خطرة إلى عينيه. . طالما آمنت سيرينا أنها محظوظة لأنها تعيش ضمن عائلة محبة كبيرة، ولكنها الليلة تمنت لو تكون وحدها بعيدة عن كل هذه العيون التي ستراقبها.

تمتمت: «آه! لقد تشاجرت للتو مع شخص ما».

حاولت التملص لتصعد إلى غرفتها حيث يمكنها العويل والبكاء.

ـ من؟ شجار؟ عمّ؟

ـ لا يهم. . أبي!

ـ بل يهم. .

أخرج منديلاً كبيراً جفّف به وجهها، كما كان يفعل في طفولتها، ثم دفعه على أنفها: «انفخي».

استعدت للبكاء مجدداً: «آه، أبي!»

سألها بلطف: «هل آلمك؟».

ضحكت: «هذا وقف على ما تقصده. إن كنت تلمح إلى أنه حاول اغتصابي أقل لك «لا»».

بدت الصدمة والراحة على أبيها:

ـ بالطبع لم أقصد ذلك. . ولكن من هو؟ لم أتعرف إلى سيارته. وماذا عن بندكت؟ أين دوره في هذا كله؟ أيعرف شيئاً عن الرجل الآخر؟

نظرت إليه يائسة، تهز رأسها وهي ممزقة ما بين الضحك الهستيري والبكاء الغاضب.

ـ دار رأسي منك يا أبي. . توقف عن الأسئلة بالله عليك!

تمتم بفضول واستغراب:

ـ ليس من عادتك التكتم في ما يتعلق بالشبان. . متى سنلتقي به؟

ـ ليس صديقي. . ولن تلتقي به!

ارتقت الدرج مبتعدة قبل أن يطلق طائفة جديدة من الأسئلة. وفيما كانت راكضة في الممر، سمعت كيري يصفّر في الحمام. . استطاعت حتى عبر باب الحمام السنديانى الصلب، أن تشم رائحة عطره الجديد الذي ينثر منه عليه بكثافة. على ما يبدو أن كيري يهيىء نفسه ليليق بعيني إحدى الفتيات. إن والديها لا يرهقان كيري بالأسئلة. . ولا يقلقان بما قد يفعل عندما يكون على موعد، ولا ينتظرانه إن تأخر. فأما على سيرينا فهما يخشيان إما أن تنقلب إلى يقطينة بعد منتصف الليل أو تضعف ساعات السحر من دفاعاتها أمام الرجال. كانت حين تصل متأخرة تجلدهما وأحد إخوتها، منتظرين. . أقفلت على نفسها في غرفة النوم لئلا يحاول أحدهما اللحاق بها.

جلست فوق السرير، تعقد ذراعيها حول نفسها. . أحست فجأة ببرود غريب، مع أنها كانت تشتعل وهي بين ذراعي لانس. . أظهرت لها المرآة أمامها وجهاً شاحباً متعباً، وشعراً أشعث رطباً. كانت عيناها الخضراوان بارقتين فيما كانت بشرة وجهها سوداء وأما ثغرها فمرتجف.

جلست بصمت، تواجه واقعاً واحداً، كان عليها مواجهته منذ زمن

بعيد.. لقد وقعت في حب رجل خاطب امرأة أخرى.

أغمضت عينيها لتبعد عنها هذه الصورة المنعكسة التي تفضح الكثير.. لا يعقل أن أقع في حبه.. إنه لا يعجبني حتى... وضجَّ تفكيرها بذكرى لانس وهو يضحك.. وهو يتحدث عن عمله، عن عائلته وعن الطيور التي يحب مراقبتها ورسمها. عضت على شفتها السفلى.. لماذا أكذب على نفسي؟ إنها معجبة به.. آه.. صحيح.. إنه متعجرف بشكل يثير التوتر، ومتسلط وبلا ضمير، وإلا لما حاول مغازلتها أساساً.. لا يحق له أن يعانقها.. فهو سيتزوج من كلاريسا هوارد لذا لها الحق الحصري بعناقه. إن تصرفه معها يجعلها تشمئز منه ولكنها وللأسف لا تتمالك نفسها من الإعجاب به.. ربما لا يعني ذلك أن يتحول الإعجاب إلى حب. فركت عينيها بقبضتيها وكأنما تريد محو كل تفكير فيه من رأسها.. قالت بصوت مرتفع: أنا لا أحبه! ثم صمتت لتصغي إلى الصدى الرهيب.. بدا لها المنزل صامتاً صمتاً يكاد معه يسمع صوتها جميع من في المنزل.. فكرت: أنا أكلم نفسي! وهذه أولى بوادر الجنون.. أليس كذلك؟ إنما هل الحب سوى جنون؟ خاصة إذا ما وقعت المرأة في حب رجل محرّم عليها، رجل هو ملك لامرأة أخرى.. حتى ولو كانت هذه المرأة شخصية كريهة أو شخصية لا تناسبه أبداً.

سمعت كيري بعد دقائق ينزل إلى الطابق السفلي، ففتحت باب غرفتها وأسرعت إلى الحمام الفارغ حيث احتلته نصف ساعة، مسترخية في مغطس ساخن.. عندما نزلت إلى الطابق السفلي شعرت بأنها عادت إلى طبيعتها قليلاً ولكن ما إن دخلت إلى المطبخ حتى ساد صمت غريب وحدقت العيون إليها بطريقة عرفت معها أنهم كانوا يتحدثون عنها.. تورد وجهها غضباً ثم سألت بعدائية متحدية أن ينبري أحدهم ليقول كلمة.

ـ ما العشاء أمي؟

ـ بيض ولحم.

سوى كيري ربطة عنقه ثم قال إنه سيتعشى في الخارج مع صديقته.

ـ هل أنت خارجة سيري؟ (سأل كيري).

قالت والجميع في صمت متوتر إنها ستبقى في المنزل.. بدت الراحة على أبويها أما كيري فمازحها:

ـ ليلة الجمعة قال بندكت شيئاً عن مشاهدة الفيلم في الأوديون.

ردت بحدة: «لن يذهب معي».

وخرجت من المطبخ لتشاهد التلفزيون.. ولكن إذا كانت تظن أن هذا سيردع كيري فهي مخطئة، لأنه لحق بها، وجلس على ذراع مقعدها باهتمام أقوى يداعب شعرها المبلل:

ـ هل تشاجرت مع بندكت؟

ـ لا..

ـ هيا الآن.. أخبريني.. من كان الشاب؟

ـ لا أحد.

ـ أهو مميز إلى هذا الحد؟

صاحت تدفعه عن المقعد: «دعني وشأني كيري».

نظر إليها بوقار ثم تركها معترفاً بهزيمته.

أمضت سيرينا عطلة الأسبوع تحاول إقناع نفسها بأنها لا تحب لانس ستوراي وإقناع والديها بأن لا همَّ لديها في الدنيا. ولكن رسم ابتسامة مشرقة على وجهها طوال اليوم لأمر مرهق لذا ستكون سعيدة بعودتها إلى عملها يوم الاثنين.. هذا إن لم تكن تخشى مواجهة لانس مرة أخرى.

أمضت الساعة الأولى في العمل يوم الاثنين في المكتبة تتحدث إلى الموظفين الأصغر منها سناً ورتبة ممن يحتاجون إلى إشراف دائم، وإلى تعليم أحدهم كيفية إدخال سلسلة من النتائج إلى الكومبيوتر. ما إن انشغل الجميع حتى دخلت من الباب الجانبي إلى حديقة التجارب.. الريح باردة اليوم.. ومن المبهج الابتعاد عنها، والدخول إلى المشتل

الزجاجي الدافىء، حيث بدأت تعاين نحو صف من النباتات المغروسة، في أرض مصنفة بدقة..

صباح يوم الاثنين، تُسلم معاطف جميع الموظفين البيضاء إلى المصبغة. واليوم في المصبغة قد أكثروا من وضع النشاء للمعطف حتى اضطرت إلى دفع الأزرار إلى أماكنها بالقوة، وكان المعطف كلما مدت نفسها إلى الأمام يصدر حفيفاً مسموعاً.

سجلت معدلات النمو لكل صف من النباتات ودونتها في أعمدة مرتبة على لوحة خشبية سوداء.. كان من السهل والخطر في آن، ارتكاب الأخطاء إن حاولت الاستعجال.. لقد تعلمت منذ زمن بعيد أن عليها العمل ببطء وحذر في هذه الأعمال الدقيقة المملة.. فالدقة القصوى أمر هام أساسي لأن العلماء الذين يقومون بهذه التجارب، يعتمدون على المعلومات التي تُدوَّن في التسجيلات اليومية.. فإن وقع أقل خطأ كانت النتيجة كارثة.

كان أحد جدران المشتل الزجاجي مصنوعاً من نوع خاص من الزجاج لعزل بعض أشعة الشمس حتى تنمو فيها هذه الشتول.. وفيما سيرينا تجمع بعض النماذج لفحصها في المختبر شاهدت طيفاً طويلاً ذا رداء أبيض يظهر أمامها، وكأنه مخلوق يسكن أعماق المحيط.. كان لشعره الأسود لمعان أزرق شبيه بجناحي الزرزور.. بدت بشرته خضراء وعيناه برّاقتين بشكل مذهل.. تسمرت في مكانها وهي تراه يتقدم نحو المشتل الزجاجي، ثم يفتح بابه وينظر إليها عبر دالية مرتفعة.

ـ ها أنت! أريد التحدث إليك.

جعلت لهجته الحادة القاطعة، أسنانها تصطك، وقالت:

ـ أنا مشغولة الآن.. ألا يمكنك الانتظار؟

دخل ثم صفق الباب خلفه، فاهتزت الجدران الزجاجية:

ـ لا.. لا يمكنني الانتظار!

قالت بغضب: «إن صفقت الأبواب دوماً هكذا تداعى المكان كله»!

ـ لن يعطيني شيء في هذه اللحظة بالذات سعادة أكبر.

اتسعت عيناها: «حسناً، ماذا تريد؟»

أسند نفسه إلى أحد الرفوف ولكن لم تر في جسده التوتر الذي في عينيه.

ـ كلانا يعرف الرد على سؤالك، أليس كذلك؟

تورد وجهها فأشاحته بعيداً وراحت تعبث باللوح الأسود الذي دونت عليه الأرقام بحذر.. فصاح بأمرها:

ـ ضعي هذا من يدك وأصغي إليّ.. لماذا هربت مني هكذا يوم الجمعة؟ اتصلت بمنزلك فكان الرد أنك غير موجودة. هل تصغين إليّ؟

تمتمت ورأسها إلى الأسفل ويداها خلف ظهرها كفتاة مدرسة:

ـ ها أنا أصغي فأنت تدفع راتبي ولكنك تضيع وقتك.

قال لها بعد لحظات بصوت هادىء:

ـ أنت لا تحبين راسي!

ـ ألا أحبه؟

لن تجادله، ستستخدم السلبية معه، وتلتزم العناد كالبغل.

ـ وإلا لما استجبت لي كما فعلت.

ضرب اللوح من يدها، وكاد يقلب به أحد صفوف النباتات، فسارع يقومها بأصابع بارعة.. راقبت حركاته الرشيقة فتذكرت طريقة عناقه لها في سيارته مساء الجمعة.

التفت إليها فطأطأت عينيها مرة أخرى وسألت:

ـ ما دمنا سوينا الأمر فهل لنا أن نعود إلى عملي؟

تمتم شاتماً، فانتفضت ورفعت نظرها، ثم قال مرتجفاً:

ـ سيرينا. تناولي العشاء بصحبتي الليلة.. لا نستطيع التحدث هنا إذ قد يقاطعنا أحد في أية لحظة.. يجب أن نكون على انفراد.. لماذا لا نتناول العشاء في شقتي؟ سأطهو لك وجبة مميزة، ثم نتحدث.

تشنج جسمها ووقفت متحدية.. أيظنها ساذجة إلى هذا الحد؟

أيحسبها لا تفهم ما يعنيه حقاً؟ إنه يدعوها إلى شقته لما أكثر من العشاء.

سألت بصوت يرن ككتلة جليد في مهب الريح:

ـ نتحدث؟

ضحكت بغضب: «أخطأت إن ظننتني أقع في مثل هذه الحيلة القديمة.. لا سيد ستوراي.. لن أرافقك إلى شقتك الليلة».

ارتدت على عقبيها تاركة المشتل الزجاجي. عرفت أنه يلحق بها ولكنها لم تلتفت بل حثت الخطى نحو المبنى الرئيسي، وكأن أيادي الجحيم تلاحقها.. وصل إليها لانس في الممر خارج غرفة مختبرها وفي اللحظة نفسها خرج بندكت من الباب.

ـ هذه أنت سيرينا! كنت أبحث عنك. يجب أن أراك..

ثم صمت عندما لاحظ وجود لانس وامتقع وجهه.

ـ أوه.. أنا..

قاطعه لانس حانقاً:

ـ ماذا تفعل خارج المختبر رامسي؟ ألم أقل لك لا تبرح مكانك لتراقب ذلك الخليط.

ـ راقبته وقد صفا الخليط.. فأدخلته في دفتر الملاحظات.

ـ إذن.. ابدأ التجربة التالية!

قالت له سيرينا:

ـ أراك وقت الغداء في المطعم في الساعة الواحدة كالعادة.

تجاوزت لانس إلى مختبرها تدير رأسها نحوه وتهمس:

ـ أيها المتسلط الكبير!

عندما التقت بندكت في المطعم بدا متوتراً توتراً جعله يلوذ إلى الصمت فترة قبل أن يتطرق إلى الموضوع.

ـ رأيت كيري يوم أمس.

هزت سيرينا رأسها مقاومة اندفاعاً لتقول له: وما الغريب في هذا؟

فهما يلتقيان يومياً.. فلماذا ينظر بندكت إليها ممتقع الوجه باللون القرمزي حتى أذنيه الكبيرتين:

ـ يريد أن يعرف إن أزعجتك... قال إنك تبدين كئيبة.

أحست بالسخط: «أوه.. كئيبة.. هذا رائع.. أنا كئيبة؟»

كيف يجرؤ كيري على أن يعلن أمام الجميع أنها كئيبة؟ ألا يمكنها أن تحس بحرقة في المعدة بدون أن ينتشر الموضوع ويناقشه أفراد عائلتها وأقاربها، وأصدقائها، ومعارفها القاصي منهم والداني؟ لماذا لم تولد طفلة وحيدة، لأبوين لا أقارب لهما في العالم؟

تمتم بندكت: «يظن كيري أنني سبب كآبتك إذ امتنعت عن رؤيتك مؤخراً».

ـ لا تكن سخيفاً.. لا شأن لك في هذا كله.

بدت الراحة عليه: «حسناً هذا ما عرفته.. أعني.. لقد قلت لي..»

انعقد لسانه فساعدته سيرينا كالعادة:

ـ إنني مولعة بك بندكت.. ولكنني أرغب في لقاء غيرك من الرجال.. وأظن أن عليك الخروج مع غيري من الفتيات.

ابتلع ريقه وكأنه أفعى البوا تجد صعوبة في ابتلاع أرنب ضخم:

ـ حسناً هذا ما حصل.. أنا.. كنت.. نوعاً ما.. أرى..

ـ ليزا؟

تنهد، وهز رأسه قائلاً:

ـ وهذا أمر آخر.. ليزا قلقة بسبب لقاءاتنا إذ تخشى أن تجرح أحاسيسك.. تقول إن عليّ التفاهم معك قبل أن نخرج معاً.

ـ لقد تفاهمنا على هذه المسألة بندكت. أود لو نبقى صديقين طبعاً.. ولكنني مسرورة لأنك تقابل ليزا فهي فتاة لطيفة مناسبة لك على ما أعتقد.

سألها مشرق الوجه: «أتقصدين أنك مسرورة من أجلنا؟ قد لا تصدقني لأنها تعرف أن عمر علاقتنا سنين عدة. أخبرتها أنني طلبت يدك

للزواج فرفضت، من الواضح أنك غير منزعجة من خروجي بصحبتها ولكنني لا أظنها فهمت هذا».

نظرت إليه غير مصدقة:

- ولماذا قلت لها إنك طلبت يدي؟ أوه.. لا بأس.. سأتحدث إليها، كيف حالك مع لانس ستوراي؟

سرعان ما بدا عليه اليأس والغضب، وتكورت شفتاه كشفتي طفل:

- يعاملني وكأنني مساعد في مختبر.. مع أن العمل كله يقع على كاهلي.

- هذا مشروعك، وربما يحاول أن يكون لبقاً معك ولذا يترك لك معظم العمل.. حتام سيبقى هنا؟ هل أخبرك؟

اكتأب بندكت: «لا يقول لي شيئاً، بل لا أظنه يحبني، أرفع رأسي أحياناً فأراه ينظر إليّ وكأنني حشرة على وشك سحقها، وهذا ما يجعلني أتوتر».

- إنه رجل صعب المراس.

- بإمكانك قول هذا مرة أخرى.

وقفت: «ولماذا لا أقول؟ إنه رجل صعب المراس.. يجب أن أعود إلى عملي.. سأراك بندكت إنما لا تقلق سأكلم ليزا».

غير أنه لم تتح لها فرصة رؤية الفتاة لأنها كانت غائبة عن العمل بضعة أيام بسبب الانفلونزا ومن القواعد المتعارف عليها أن الموظف الذي يلتقط مرضاً معدياً يبقى في منزله حتى يشفى. أما السبب فحاجة بعض المواد إلى البقاء معقمة لئلا تلتقط الجراثيم، أو تنتقل تلك إلى أي عامل في حقل الاختبارات.. فحتى العاملون في المشتل الزجاجي، والحديقة التجريبية يضعون قفازات معقمة ويعقمون المعدات.

كانت سيرينا تشاهد لانس ستوراي من وقت لآخر.. فمن المحتم أن يلتقيا في الممر أو المطعم.. ولكنها كانت كلما رأته تشيح بوجهها إلى الناحية الأخرى، وعندها كانت عيناه تتحولان إلى جليد متقزز

فيحدّق إليها بدون أن يتفوه بكلمة. ثم يكمل مسيره صامتاً.

كرهته سيرينا كرهاً شديداً لم يكن يظهر في وجهها البارد المتجهم عندما تلقاه. حينما دعاها إلى شقته، أهانها.. ولا تنوي السماح لنفسها بأن يغويها أو أن يستخدمها لتسلية عابرة في أثناء غيابه عن لندن وعن كلاريسا هوارد.. إن تصوّر أنها تعطيه ضوءاً فليعد التفكير ثانية. هي تعتبر نفسها فتاة متمدنة متحررة ولكن ذلك لا يعني أبداً أنها لا تقيم وزناً للأخلاق، ثمة ما تعرف تماماً أنها لن تفعله ولعل الأبرز منها إقامة علاقة مع رجل على وشك الزواج من امرأة أخرى.

جعلها حبها له تجد تصرفه الحقير اللاأخلاقي شديد الازدراء. كيف يعيش على هذا النحو؟ سيتزوج كلاريسا هوارد عن غير حب وفي سبيل المال ولكن من الواضح أنه لا ينوي أن يكون مخلصاً لها قبل أو بعد. أحست سيرينا بشفقة على الفتاة الأخرى. لا تستغرب عدم ثقة كلاريسا به واللحاق به إلى ذلك الكوخ. لقد قال لانس إنه يذهب إلى هناك بغية مراقبة الطيور إنما ما نوع هذه الطيور التي كان يلاحقها هناك؟

كانت سيرينا تستيقظ أحياناً في الليل وهي تشعر بصداع وتشوش وارتباك بشأن هذا الرجل.. لا شك في أنه يعاني من انفصام في الشخصية.. فهناك الرجل المعجبة به، والرجل الذي تستصعب أن تصدّق أنه يخطب فتاة لا يحبها من أجل مالها.. والرجل الآخر القاسي العديم الضمير الذي لا يرحم.

أخيراً تمكنت سيرينا من الاجتماع بليزا صباح الجمعة.. تناولتا القهوة في زاوية بعيدة من المطعم، وهناك أبلغتها حقيقة وضعها مع بندكت.. لم ترغب أن تكون صريحة كل الصراحة إذ لم ترغب أن تخبر ليزا أنها كانت تفتش عن طريقة لتتخلص منه بدون أن تجرح مشاعره.. فهذا ما يظهره أشبه بكلب غير مرغوب فيه. ومن الواضح أن ليزا تظنه أفضل رجل في الدنيا منذ اختراع الفيديو.. وهذا الحب المخلص هو بالضبط ما يحتاجه بندكت.. ابتسمت سيرينا لها مشجعة، وهي تتحدث

عن روعته ووسامته ولباقته.

- قال إنه اشتاق إلي أثناء غيابي عن العمل.. أحبته عائلتي. أليس هذا أمراً رائعاً؟

- بل رائع جداً!

- ولكنني لم أقابل أمه حتى الآن.. هل هي طيبة؟

- وهل اقترح اصطحابك لتقابليها؟

ردت بلهفة: «لا.. ليس بعد.. وهل ستحبني؟ هل تحبك كثيراً؟».

ضحكت سيرينا: «أبداً، ولكنها أرملة، وبندكت ولدها الوحيد.. إنها تحبه بتملك ليزا.. لو كنت مكانك لما استعجلت في مقابلتها.. تعرفي إلى بندكت جيداً أولاً».

ظهر عدم الفهم على وجه ليزا.

- أوه.. عزيزتي.. أهي من ذلك الصنف؟

- هذا ما أخشاه، لكن لا تقلقي.. المهم هو رأي بندكت لأنه لن يعيش إلى الأبد مع أمه، حتى وإن كانت تفضل ذلك.. في الواقع أن بندكت بحاجة للإنقاذ.

لمعت عينا ليزا بتصميم فولاذي، لصيحة الحرب هذه:

- مسكين بندكت! لم أكن أعرف.

عادت سيرينا سعيدة إلى عملها وهي تشعر بأنها حققت شيئاً، ولكن مرحها لم يدم حتى وقت الغداء، فقد شاهدت كلاريسا هوارد تجتاز موقف السيارات، وذلك عندما كانت خارجة من المبنى قاصدة السوق.. تجاوزتها كلاريسا دون أن تنظر إليها.. فمن الواضح أن الشقراء لا تنظر إلى أحد من بنات جنسها، وإن نظرت فلا تراه.. بدت لها كلاريسا غاضبة، وفي مزاج عكر لا يسمح لها بتبادل الحديث مع غرباء.. ولولا انتعالها حذاء أنيقاً عالي الكعبين لقالت سيرينا إنها تسحق الأرض تحت قدميها بسبب غضب ما.

لم تنزعج سيرينا لأن لانس عرضة للهجوم قريباً.. إنه رجل ناضج، يستطيع العناية بنفسه، ومع ذلك كان رهانها على كلاريسا هوارد. فنظرة كلاريسا شريرة، وسيرينا امرأة.. وتعرف أن النساء أشد فتكاً من الرجال.. وهي تدعمها ضد ستة رجال في أي وقت وزمان.

تمنت وهي تفتح سيارتها لو تكون الشاهدة على ما يمكن أن يجري في المختبر الذي يعمل فيه لانس. ماذا فعل؟ ولماذا تبدو كلاريسا كنمرة جائعة؟

شغّلت سيرينا محرك السيارة عابسة ثم رأت أحد التقنيين في المختبر ينظر إليها بذهول لأنها كادت تصدمه أثناء انطلاقها من الموقف.. فرسمت بسمة اعتذار على شفتيها سرعان ما تلاشت فيما بعد.. ترى هل قابل لانس امرأة أخرى مؤخراً؟ ولكن ما دام حاول العبث معها فلماذا لا يقدم على الشيء عينه مع غيرها. فهل اكتشفت كلاريسا أن في حياته نساء؟

لم تتغير بلاكستون كثيراً منذ أوائل القرن الثامن عشر.. فما تزال بلدة ريفية صغيرة، شوارعها محاطة بالأشجار على الجانبين، ومنازلها متواضعة صلبة البناء. كانت السناجب تقفز من وإلى الأشجار مزعجة أعشاش العصافير وكان أحياناً أحد الثعالب يتسلل ليلاً باحثاً عن طعام حول البيوت.. منذ سنتين، بني مركز تسويق جديد في منتصف الساحة حيث الأبنية العتيقة والشوارع، وإلى هناك اتجهت سيرينا.

لم يكن مزاجها يساعدها على الاستمتاع بجمال النهار وبجمال الحدائق الصغيرة الغنية بأزهار الربيع، كالزنبق والنرجس، والأجراس الزرقاء ذات الرائحة القوية التي لا يمكن نسيانها.

وفي الواقع لم تستطع التركيز على التسوق، بل سارت حول الفناء المستدير وسط المركز ساهمة حتى عن واجهات المحلات، وبما أن اليوم كان يوم جمعة، فقد كان المكان مكتظاً بالمتسوقين لعطلة الأسبوع مع عائلاتهم. كان هناك بضعة عجائز جالسين على المقاعد الخشبية

الكبيرة تحت أشعة الشمس يقرأون الصحف وينتظرون عودة زوجاتهم من السوق.

أخيراً.. اشترت سيرينا ثوب سباحة وثوباً صيفياً من القطن البرتقالي اللون.. إنها بحاجة دوماً للدقة في اختيار الألوان، فشعرها الناري يحدّ مما تستطيع أن تختاره، ولكن اللون البرتقالي على أنواعه يناسبها.

وعندما قفلت راجعة إلى المبنى ووصلت إلى موقف السيارات نظرت بسرعة لترى ما إذا كانت سيارة كلاريسا ما تزال هنا.. وجدتها متوقفة في الجهة الأخرى.. فنظرت إليها بحسد ونفاد صبر.. إنها لعبة جميلة إنما ليست لها. كلاريسا هوارد قادرة على شراء ما يحلو لها من أغلى أنواع السيارات إلى أوسم الرجال.. أليست محظوظة؟ سارت سيرينا في موقف السيارات متجهمة، في الواقع، لا تعتقد أن كلاريسا محظوظة.. فهي سيرينا طالما كانت مضطرة للعمل لتحصل على ما تريد ولكنها تراهن أنها سعيدة بسيارتها القديمة المستعملة، أكثر من سعادة كلاريسا بهذه السيارة الخيالية كما أنها لا تريد رجلاً يمكنها شراؤه بالمال.. لذا فكلاريسا على الرحب والسعة في أن تأخذه.

ما إن دخلت من الأبواب الزجاجية المتحركة إلى فناء المبنى، حتى رأت لانس خارجاً مع كلاريسا. ارتدت سيرينا عن طريقهما بسرعة لأنها شعرت بأن كلاريسا ستجتاحها إن لم تبتعد. فالفتاة الشقراء كانت تتحدث بصوت زاعق كصفارة الإنذار.. تقول بحدة للانس:

ـ لن ينسى أبي هذا بسرعة!

ولكن لانس كان عابساً، يضع يده تحت مرفقها، وكأنه يريد سوقها إلى سيارتها بسرعة.. غير أن كلاريسا انتزعت ذراعها منه وصفعته على يده.

فكرت سيرينا بسخرية: خصام الأحبة؟ بدا على لانس أنه مرّ بوقت عصيب.

كانت كلاريسا تبتعد عندما لمحت فجأة سيرينا.. إنها المرة الأولى التي «تنظر» فيها فعلاً إليها. بدت نظرتها باردة متحفظة، غير مكترثة حتى رفعت بصرها إلى شعر سيرينا.. فتوقفت فجأة وحملقت فيها بحدة.. وصاحت ترتجف:

ـ شعر أحمر؟

طالما تمنت سيرينا لو كان لون شعرها مختلفاً.. لكنها لا تفهم سبب كراهية كلاريسا البادية في صوتها.. بدا لها تصرفها متطرفاً.. فليس جريمة أن يكون شعر المرء أحمر!

عادت كلاريسا إلى الصراخ وكأنها تستعد في أول فرصة إلى انتزاع شعر سيرينا من منابته..

ـ يا إلهي! إنها هي.. أليس كذلك؟ لا شك أنها هي مع هذا الشعر!

ارتدت كلاريسا نحو لانس الذي كان ينظر إلى سيرينا نظرة اتهام باردة..

صاحت به صارخة:

ـ اطردها! أريد أن تخرج من هنا.. اليوم!

* * *

٩ ـ الخطر الأحمر آت!

لم تستطع سيرينا تصديق أذنيها.. نظرت مشدوهة إلى كلاريسا تتساءل عما إذا كان هذا كله مزاحاً ولكنه إن كان مزاحاً فهو سقيم بيد أنه لم يكن على وجه الشقراء مرح.. كانت تنظر بحدة إلى سيرينا وفتحتا أنفها متسعتان وشفتاها مزمومتين في تكشيرة بشعة.. لا.. ليس الأمر مزاحاً.

نظرت سيرينا إلى لانس وملء عينيها الارتباك تسأله.. ولكنه لم يكن مبتسماً أيضاً.. بدا غاضباً ومجنوناً وكأنه يود لو يحطم الأشياء ومن خلال الطريقة التي كان ينظر فيها إلى سيرينا شعرت بأنها أحد الأشياء التي يريد تحطيمها.. لقد غضبت منه دوماً إنما مرأى هاتين العينين الرماديتين، جعل الدماء تجف في عروقها. كان ينظر إليها وكأنه يكرهها.

قال بفظاظة: «عودي إلى عملك آنسة برنتيس».

لم تجادله سيرينا، بل ارتدت على عقبيها تحثّ الخطى إلى الداخل، كانت عيناها تحرقانها بدموع لم تتساقط حتى الآن، ما إن وصلت إلى غرفة السيدات حتى استرخت لأنها كانت فارغة.. علمت أنها ستبكي، وهي لا تريد أن يراها أحد.. تعلمت سيرينا منذ الطفولة ألا تبكي علناً.. كان إخوتها يسخرون منها عندما كانت تنفجر بالبكاء إذا وقعت، أو انتزع منها لعبة.. لذا تعذّر عليها محو مثل هذا الدرس من ذاكرتها. أقفلت على نفسها باب أحد المراحيض، وتركت للدموع التي

كانت تكبحها سبيلاً.

ولكنها سرعان ما لملمت نفسها وخرجت تغسل وجهها بماء بارد ثم جففته، وأعادت تبرجها بيدين مرتجفتين قليلاً.. أنبأتها غريزتها بأنها كلما أسرعت في العودة إلى طبيعتها، كلما كان ذلك أفضل.. أحست حينما نظرت إلى المرآة فوق المغسلة أنها لا تعرف الصورة المنعكسة.. إنها غير معتادة على مثل هذه المشاعر العنيفة، وهذا ما جعلها تبدو غريبة، فعيناها شديدتا الاخضرار وجفناها أحمران، ووجهها شاحب.

حتى الآن وبعدما أصبحت أهدأ حالاً، لم تستطع فهم سبب ما جرى.. كانت الشكوك تضج في عقلها كلما تذكرت الغضب البادي على كلاريسا وهي تصيح «شعر أحمر!»

هل هذه الفتاة مجنونة؟ أتخاف ممن شعره أحمر؟ ربما خوفها مرضي، تستسلم إليه في نوباتها العصبية المفاجئة. لقد بدت بكل تأكيد غريبة، ولولا القلق الذي يعتري نفس سيرينا لأشفقت على كلاريسا. هل ستطرد فعلاً؟ ماذا إن أصرت كلاريسا؟ هل يذعن لانس إليها؟ لقد شاهدته يذعن إليها من قبل. ألم يدفع سيرينا للاختباء في الكوخ لأنه خاف أن يكدر مزاج خطيبته؟ وعندما سمعتهما يتحدثان، تذكرت أنها أصيبت بالدهشة بسبب الطريقة التي سيطرت كلاريسا فيها على الحديث كله.. لم يبدُ لانس كرجل يترك امرأة تسيره كما تشاء.. ولقد سخرت منه كثيراً في تلك الأثناء.

والآن عندما هددت كلاريسا وتوعدت لم يقل شيئاً ليهدئها بل لم يحاول مجادلتها أو تقديم اعتذار لسيرينا. وكان جلّ ما فعله أن حدق إليها وكأنه يكرهها ثم صاح عودي إلى عملك.

توقفت عند هذا الحد.. رافضة التفكير فيه أكثر من ذلك. خرجت من غرفة السيدات وعادت إلى مختبرها.. إن حاول لانس طردها بلا سبب موجب، فستحاربه.. ترفض أن تُطرد لأن شعرها أحمر. فليحاول! ستقاضيه، وهي واثقة أنها ستلقى دعم جميع الموظفين في

الشركة.. لانس مجنون أكثر من خطيبته إن فكر أنه قادر على طرد أحد لهذا السبب السخيف.

عندما فتحت باب المختبر، رأت أن جميع الموظفين الجدد منكبون بكد على عملهم.. نظرت إلى ساعتها مذعورة. لقد تأخرت عشرين دقيقة، وهذا أمر نادر منها.. أحست أنها تتلقى نظرات لها معنى، فقد لاحظ الجميع تأخرها. تناولت معطفها بدون أن تتفوه بكلمة، ثم غسلت يدها على المغسلة وجففتهما وبعد ذلك وضعت قفازين في يديها وشرعت بالعمل.

لم يقع ناظراها على لانس مرة أخرى ذلك اليوم. توقعت دخوله إلى المختبر، لذا ظلت طوال فترة العصر تنظر إلى الباب ولكنه لم يظهر.. وهذا ما أفسد عليها تركيزها على عملها.. ارتكبت عدة أخطاء فغضبت من نفسها فأوقفت العمل مدة ربع ساعة ثم قصدت المطعم لتحتسي فنجان شاي ولتلملم شتات نفسها قبل العودة لإنهاء عملها.. وحتى ذلك الوقت كان الجميع قد ترك عمله وظلت وحدها في المختبر.. عندما نظرت إلى ساعتها، أدركت بدهشة أنها السادسة، وأن المبنى كله كان هادئاً بل ربما فارغاً.

سحبت قفازها الواقي وغسلت يديها ووضعت معطفها الأبيض بين المعاطف الأخرى في سلة الغسيل ليحمل إلى مصبغة خاصة تعتني بالغسيل والتعقيم.. وذهبت إلى غرفة السيدات لتأخذ منها معطفها.

لم تلتقِ بأحد إلا بالحارس الذي كان ينتظر في الردهة وهو يعبث بمفاتيحه بطريقة لها معنى... فنهار الجمعة يريد الجميع خارج المبنى في الخامسة والنصف تماماً، ليقفل المكان وينسحب إلى مركزه في مؤخرة البناء، ليأكل سندويشاته ويشاهد التلفزيون..

قالت سيرينا: عمت مساء جون.. ولتكن عطلتك ممتعة.

تلقت نظرة متجهمة: «ألم تتأخري قليلاً ليلاً؟ ألم تفكري في ظروف الآخرين؟».

ابتسمت له: «آسفة، نسيت الوقت».

عندما وصلت إلى المنزل، أدهشها أن تراه معتماً فارغاً.. ولم تتذكر قبل أن تدخل المطبخ أن والديها سافرا إلى لندن لقضاء عطلة الأسبوع مع ديوغ وسوزي.. وقد خرج أيضاً كيري الذي وجدت منه مذكرة أمام إبريق الشاي، فانحنت لتقرأها.. سيتأخر كيري في العودة، لأنه ينوي اصطحاب صديقته إلى «نورويتش» للرقص.

قالت سيرينا في نفسها ليته لم يخرج فهي تشعر بالوحدة وتحتاج إلى التحدث مع أحد.. من النادر أن يغيب والداها ليلاً وعندما يحدث أن يغيبا يبقى أحد أخوتها معها.

وطالما شكّت أن والديها يتركان أحدهما ليكون حارساً لها، كان ذلك يحدث خاصة في أيام المراهقة.. ولكنها لم تعد مراهقة.. لقد أصبحت امرأة ناضجة.. وربما رسخ أخيراً في عقل العائلة أنها عادت لا تحتاج إلى حماية دائمة.. وكم تمنت لو يتوقف إخوتها عن مراقبتها ككلاب الرعاة التي لا تجد سوى حمل واحد لحراسته.. أما الآن فعلى العكس، تتمنى لو أن أحدهم هنا ليعطيها كتفه حتى تبكي عليه.

فتشت عن بعض الطعام لأن مزاجها لا يسمح لها بطهي شيء ثم قررت أن تطبخ المعكرونة، وبعض البيض واللحم في صلصة الطماطم. كانت منكبة على وضع عيدان المعكرونة في الماء المغلي عندما رن جرس الباب.. عبست سيرينا ثم نظرت إلى ساعتها. ربما هذا بندكت فالوقت ظلام.. هكذا ما إن وصلت إلى الباب حتى وضعت سلسلة الحماية، وتطلعت من فتحة الباب بقلق وهي تمسك حزمة من السباغيتي في يدها.

لم يكن الطارق بندكت بل لانس الذي يرتدي سترة خضراء قاتمة من التويد وسروالاً يماثلها لوناً، نظر إليها من خلال الفتحة بعدائية.

ـ افتحي.. أريد التحدث إليك!

لم تتحرك لإزالة سلسلة الباب:

- تكلم، وأسرع، فأنا أحضّر عشائي.

ولوحت له بالاسباغيتي.

مد يده عبر الباب يمسك بمعصمها، فوقعت عيدان المعكرونة وتحطمت تحت قدميها وهي تحاول التحرر منه.

صاحت به: «انظر ماذا فعلت، سيستغرق تنظيف السجادة وقتاً طويلاً.. وإن وجدت أمي شظية معكرونة واحدة فقد تقتلني».

قال من بين أسنانه:

- قد أقتلك أنا أولاً.. وعلى أمك أن تقف منتظرة دورها.

تراجعت عنه:

- لن تجرؤ على طردي لأن شعري أحمر.. لا شك أنك أشدّ جنوناً من خطيبتك!

- إن لم تفتحي الباب ركلته..

أحست أنه يعني ما يقول، فاللون الأحمر القاتم على وجهه أوضح أنه في مزاج خطير.

- لن أدخلك لتقتلني!

- إن لم تدخليني أعد أن أقتلك!

أمالت كل ثقل جسدها على الباب لتقفله ولكن ثقله من الجهة الأخرى أجبرها على التراجع، فنظرت إليه من فتحة الباب فقال لها:

- أنا أفقد أعصابي!

وهذا ما أقنعها أن من الأمان على المدى الطويل أن تُدخله بدلاً من تركه يقتحم الباب بالقوة.

تراجعت إلى الخلف، وفكت السلسلة، فدخل من الباب وصفقه وراءه ثم سحب نفساً قوياً واستند إلى الباب ويداه على خصره في وقفة عدوانية. لقد عبثت ريح الربيع بشعره فشعثته ولاحظت أنه لم يحلق ذقنه إذ بدا فكه قاتماً قليلاً.

صاح بها: «لماذا فعلت هذا؟»

رفرفت عينيها: «فعلت ماذا؟»

- لا تلعبي دور البريئة! تعرفين ما أعني! لماذا أرسلت تلك الرسالة؟

- رسالة؟

كان يساورها طوال النهار إحساس بأنها إما مجنونة وإما العالم مجنون وهي على وشك الانضمام إليه.. ما من أحد كان يبدو عاقلاً.. لكن ما يتكلم لانس عنه يجعله غاضباً.

- لا تحاولي التملص.. لقد شاهدتها.. عرفت أنك من أرسلها.. من غيرك يعرف؟ كيف تفعلين هذا؟ إن إرسال الرسائل المجهولة المصدر لأمر حقير.. ما كنت لأصدق أنك قادرة على فعل هذا لو لم أشاهد الرسالة بأم عيني!

شحب وجه سيرينا وهي تصغي إليه فقد صدمها الاحتقار البادي على وجهه:

- أنا لم أرسل رسالة مجهولة المصدر في حياتي كلها!

شعرت بالغثيان لأنه يصدق أنها قد تقدم على شيء كهذا. نظر إليها بحدة فعرفت أنه لم يصدقها، قالت بغضب:

- لا أعرف شيئاً عن رسالة.. ماذا تقول؟ لمن أرسلت؟ لك؟

استقام لانس وسار نحو المطبخ، المشبع ببخار الماء من الغلاية، تذكرت سيرينا فجأة المعكرونة فركضت خلفه. لكنه وصل إلى النار قبلها، فوقفت تراقبه وهو يضع الاسباغيتي في الماء الساخن. كان يقوم بهذا بكل كفاءة وخبرة.

- وصلت إلى كلاريسا الرسالة.. ومن أرسلها يعرف أنك كنت في الكوخ معي طوال الليل، ويعرف أنك كنت مختبئة في غرفة النوم عندما وصلت كلاريسا.

جلست سيرينا على الكرسي، وراقبها لانس بفم مشدود. ثم أردف:

- لم تكن رسالة مستساغة قراءتها!

ابيضّ وجهها ثم احمر.

ـ أتعني أنها.. كانت.. داعرة؟

كشّر:

ـ ليس بالضبط.. لكنها تلمح إلى أكثر مما تقول فعلاً.

ـ تلمح إلى ماذا؟

أطفأ النار تحت الاسباغيتي، وظهره إليها.

ـ إلى أننا على علاقة! وهي تصفك تفصيلياً. لهذا السبب أيقنت أنها أنت.

نظرت إليه مشدوهة فقال مضيفاً بشيء من التسلية المتجهمة:

ـ بدوت في الرسالة كهيلين في طروادة.

ـ هيلين طروادة؟ أنا؟

شهقت.. فابتسم بمكر، وهز رأسه:

ـ كان فيها الكثير عن شعرك الأحمر وعن عينيك الخضراوين، هذا دون ذكر وصف جسدك.

اتسعت عيناها وقد تذكرت شيئاً:

ـ شعري؟ ألهذا كانت كلاريسا...؟

ـ نعم.. هذا هو السبب. كانت تهاجمني وعندما واجهتك وجهاً لوجه، انفجر رأسها.. والواقع الوحيد الذي أغفل ذكره مرسل الرسالة هو أنك تعملين في المختبر.. ولكن ما إن وقع بصر كلاريسا عليك حتى عرفتك من الوصف.

عندما جالت عيناه في قدها الرشيق كان فيهما وميض مفاجىء خبيث.

ـ أتعرفين أنني ظننت أن الوصف مبالغ فيه؟ لن أصفك بمثل هذه الإثارة.

نظرت إليه متوردة.

ـ لست مرسلة تلك الرسالة! ولماذا أفعل؟ وأنا ساخطة لأنك ظننتني

المرسلة!

ـ ماذا ستعدين من هذه السباغيتي؟

ـ سأعد منها طبق سباغيتي بالصلصة.

ـ هل لك اعتراض إن شاركتك فيها؟ أنا جائع.. لا بد أن السبب هو هذا التوتر الذي مررت به اليوم.

جذب علبة البيض إليه، وبدأ يكسر بيضة في طنجرة قريبة منه.. فأخذت اللحم وبدأت تقليه.. ثم قالت:

ـ آمل أن تصدقني.. لم أرسل تلك الرسالة.. أقسم بشرفي أني لا أعرف عنها شيئاً.

ـ أصدقك.. على أي حال.. أنا لم أخبر أحداً بما حصل في الكوخ تلك الليلة.. لذا أظن أن المعلومات التي وردت جاءت عن طريقك بطريقة ما، من أخبرت القصة؟.

نظرت إلى اللحم المتحرك فوق النار فاغرة فاها، لأن لانس على حق.

سألها بحدة: «رامسي..؟ أليس كذلك؟ أعرف أنه غاضب مني.. كنت أخاف أن أدير له ظهري في المختبر لئلا يطعنني بسكين..»

ـ لا يقدم بندكت على شيء كهذا! بالطبع ليس بندكت.

أمسك بكتفيها حيث راحت أصابعه تحفر في لحمها:

ـ تعالي.. قولي الحقيقة! لقد عرفت، أليس كذلك؟ من الأفضل أن تبوحي لأنني سأعرف، وعندما أعرف..

ابتلعت ريقها بصعوبة.. وقالت بصوت أجش:

ـ إنها سكرتيرتك.

وعدت كريستي ألا تقول للانس إنها ساعدتها على الاختباء في سيارته.. ولكن ما دامت كريستي قد بدأت بإرسال رسائل قذرة مغفلة مجهولة التوقيع، فقد حان الوقت لمخالفة وعدها.

شد لانس عليها بقوة فتألمت:

ـ كريستي؟

هزت رأسها وأخبرته كل شيء على عجلة، فهوت يداه ثم ما لبث أن تركها.. حينما توقفت عن الكلام كان يقف محدّقاً إلى الأرض، ووجهه كالعاصفة.

ـ ما الذي تقصده حباً بالله؟

رفع رأسه فالتقى بعيني سيرينا التي أشاحت بنظرها عنه وهي تكبح تنهيدة إشفاق على كريستي..

ابتعد نحو النافذة، ثم عاد بخطوات متوترة، جعلتها تتوتر هي أيضاً، وقال كأنه يكلم نفسه:

ـ هكذا إذن..

ثم تنهد بنفاد صبر.

ـ هل جهز اللحم؟ يجب أن نطهو الاسباغيتي معه.

أسرعت تحضر الجبن فيما راح هو يقلب المعكرونة قبل أن يسكب القليل من الحليب فوق البيض المخفوق ليضيف إليه اللحم، ثم جمع المزيج مع الاسباغيتي وقلبه مرتين أو ثلاثة قبل أن يسكبه في صحنين حضرتهما سيرينا على المائدة.

قالت: «ما كنت لأزعج نفسي بكل هذا، كنت سأسكب القليل ثم أحمله إلى غرفة الجلوس لآكل وأتفرج على التلفزيون!»

ـ لا يهم..

أخرجت زجاجة ماء غازية من البراد:

ـ أتريد شيئاً منها؟

ـ أفضل عليها أي نوع من العصير.

ـ عندي القليل.

أخرجت العصير من البراد فسكبته في كأس ثم راقبت لانس يضع الجبن فوق المعكرونة، ثم يرفع شوكة مليئة إلى فمه. وقال: «المعكرونة ناضجة أكثر مما يلزم! ولكن هذا ما يحدث عادة عندما

تحضرين المعكرونة في أثناء جدال عاطفي. الإيطاليون يعرفون أنه لا يمكنك تحضير الاسباغيتي والصراخ في آن واحد!»

ـ ولكنهم يصرخون دائماً.

ـ ذلك غناء لا صراخ.. كل الإيطاليين يغنون الأوبرا وهم يحضرون المعكرونة.

لفت سيرينا بعض المعكرونة على شوكتها، وراقبتها تعود إلى الصحن مرة أخرى حالما حاولت رفعها إلى فمها.. فابتسم لانس قائلاً:

ـ حاولي استخدام ملعقة لإقفال طرف الشوكة، ولا تأخذي الكثير مرة واحدة.

حاولت، ونجحت.. بعدما أكلت القليل سألته:

ـ ماذا قلت لكلاريسا؟

ـ قلت لها الحقيقة.

ـ أنني كنت في الكوخ؟

ـ إنك كنت هناك طوال الليل وإنك اختبأت تحت السرير عندما دخلت إلى غرفة النوم.

كان يتكلم بهدوء وهو يراقب الدم يرتفع إلى وجهها.

ـ ولماذا قلت لها هذا؟

ـ لم أرَ أن هناك جدوى من إخفاء الحقيقة.

ـ لكن، ألم تقل لها إن.. لا شيء في الأمر. إننا لم نكن.. لم نقم..

وصمتت.. فالتوى فمه من السخرية: «حاولت.. لكنها لم تصدقني».

ـ لكن.. خطوبتكما..

ـ انتهت.

تناول المزيد من المعكرونة، وشرب بعض المياه الغازية أما سيرينا فكانت تستوعب المعلومات.

ـ لو شرحت..

مال إلى الأمام، وضرب صحنها بشوكته:

ـ كلي طعامك قبل أن يبرد.. إنه لذيذ، لقد طهونا معكرونة لذيذة.. بإمكاننا أن نفتتح مطعماً إذا ما نسف رامسي المبنى كله في يوم ما.

ـ كيف يمكنك الجلوس بهدوء فيما زواجك قد ألغي؟ ربما لن تصغي إليك كلاريسا اليوم لأنها متكدرة. ولكن حينما تهدأ، أنا واثقة أنك ستجعلها تفهم الحقيقة.

رد بابتسامة ساخرة: «إنها تعرف الحقيقة».

تسارعت دقات قلبها حتى أصمتها، ونظرت إليه متسعة العينين: «ماذا تعني؟»

نظر إليها من بين رموشه وقال:

ـ يرتكب الجميع الأغلاط.. وكلاريسا هي إحدى أغلاطي. لا شك أنني كنت مشغولاً إلى درجة أن خفي عني ما كنت ألزم نفسي به.. أعترف أنها فتاة جذابة شقراء أنيقة ذات جسد قد يصفه أي رجل بالمثير.

تمتمت وقد ازداد تورد وجهها: «عكسي تماماً على ما أعتقد».

ـ آه! لا بأس بجسدك.

تجرعت الماء بسرعة لترطب حلقها.

ـ أنا أفكر في الماضي، أعتقد أنها حرصت على ألا أرى وجهها السيء.. كانت في البداية في غاية اللطافة والعذوبة.. ثم بدأ والدها يرمي التلميحات بالنسبة للزواج، ولم تبدُ لي الفكرة سيئة.. ألن تأكلي؟

ـ لم أعد جائعة.. أتريد القهوة؟

لم تكن راغبة في الإصغاء إليه وهو يتحدث عن كلاريسا هوارد.. لا تريد أن تكون الكتف التي يبكي عليها، ولا تريد أن تسمعه يصف مشاعره نحو امرأة أخرى..

قال وهي تقف: «لم لا؟»

جعلتها نظرته إليها مرتبكة حتى كادت توقع الفنجانين وهي تخرجهما من الخزانة..

ـ كنت مشغولاً بالعمل عن التفكير في الزواج غير أنه كان يتبادر إلى ذهني من وقت إلى آخر أن عليّ الزواج قبل أن يفوت الأوان.

سألته: «أتريد السكر؟»

ـ لا.. شكراً، أريدها مرّة.. احفظي هذه المعلومة من أجل المستقبل.

أي مستقبل؟ كادت تسأل، ثم امتنعت.. ظلت مشيحة إليه وهو يستمر في الكلام بهدوء، بصوت يقرر أمراً واقعاً:

ـ أرادني هوارد صهراً له، وما إن دخلت الفكرة إلى رأسي حتى قررت أن لا بأس بكلاريسا فهي كغيرها من النساء.. لذا طلبت يدها في ليلة ما بعد حفلة ما.. وساعدني على هذا جو الحفلة. ولولا هذا لما طلبت يدها.. بعدها خلعت كلاريسا القناع عن وجهها. وبدأت تريني زاوية مختلفة من شخصيتها.. لم تقل نعم، ولم تقل لا.. إنها ممن يستمتع باللعب بالرجال، مثل القطة التي تأسر فأراً.. كانت ستقول نعم في النهاية.. ولكن، ما إن ظنت أنني أصبحت ملكاً لها حتى باتت لا تجد جدوى في إخفاء أشياء عني.

وضعت القهوة على المائدة وسألت عابسة:

ـ أي نوع من الأشياء؟

ـ طباعها مثلاً.. إنها سيدة مدللة سيئة الطباع.. وهذا جزئياً خطأ أبيها. لم يقل لها قط «لا»، ولا ترى لماذا يقول لها الآخرون «لا».. سرعان ما بدأت أدرك أي غلطة ارتكبت، ولكنني كنت وسط صفقة تجارية معقدة وكنت بحاجة إلى دعم أبيها.. لم أكن قادراً على إغضابه.. ولهذا سافرت إلى بروكسل.. وما إن وقعت الصفقات، حتى تمكنت من تسليم عملي في لندن لنائبي، والأهم أنني أصبحت قادراً على الإيضاح لكلاريسا أنها لن تستطيع معاملتي كدمية تمسك بخيوطها.

ظلت سيرينا مطأطئة رأسها.. وقالت:

- وكأنك لم تحبها يوماً.

- تعرفين هذا.

رفعت رأسها منتفضة: «وكيف لي أن أعرف؟»

- تعرفين منذ اللحظة الأولى على لقائنا عندما طرحتني أرضاً.. منذ ذاك اليوم تغيرت أحوالي.. مع أنني لم أفهم لذلك سبباً في البدء. وتَرتني الطريقة التي دأبت فيها على ذكر رامسي أمامي، وكأنه الرجل المثالي. في ذلك الوقت، كنت أشعر بالسقم لمجرد سماع اسمه.. كان كالشوكة في خاصرتي حتى التقيتك.. أنت لا تعرفين أبداً كما عانيت حتى أتركه في العمل رغم ما فعله. كانت شركة التأمين تلاحقني، ولم يكن ينقصني وجودك كذلك. لقد بدا وكأنه يسكنك!

- عرفته طوال حياتي.. يكاد يكون أخ من إخوتي!

- أدركت هذا أخيراً، إنما ليس قبل أن يوجع قلبي.. لم أحس بالغيرة من قبل..

وقفت، ترمي كرسيها إلى الخلف: «تغار؟».

وقف لانس يلتقط لها الكرسي وينظر إليها ساخراً:

- أغار.. لا تتظاهري بأنك لم تعرفي هذا.

- سيد ستوراي..

ضحك، وقلدها:

- سيد ستوراي؟ لماذا هذه الرسميات المفاجئة؟ خائفة؟

تراجعت إلى أن بات لا مكان لترتد إليه. وقف لانس محنياً هامته فوقها ويداه على الجدار على جانبي رأسها وعيناه تتفرسان في عينيها، وفيهما أنوار خبيثة بارقة.

تمتمت: «لا أريد أن يكون تصرفك ردة فعل.. لقد فسخت لتوك خطوبتك بكلاريسا هوارد..»

قاطعها: «ولم أحس قط بمثل هذه الراحة».

- لكنك بدوت غاضباً عندما رأيتك معها!

- بل كنت غاضباً منك لأنك أرسلت الرسالة، أو هكذا ظننت.. ولكنني من ناحية أخرى سُررت بالنتيجة. حرت كيف أفسخ تلك الخطوبة.. ولكنني كرهت أن أفكر في أنك من بين جميع الناس، تفعلين شيئاً كهذا.. يقشعر جسدي من الرسائل المغفلة. كان عليّ أن أعرف أن من المستحيل أن تكوني أنت.

- كان يجب عليك أن تعرف! لو ظننت أنني قادرة على هذا، لما أعجبت بي كثيراً.

عبس: «آسف سيرينا.. لا أدري كيف استطعت أن أفكر هكذا.. ولكن أتى لي غير ذلك وأنا موقن من أن لا أحد غيرك لديه سبب ليرسلها، أو لديه المعلومات التي وردت فيها.. الرسالة مرسلة من هنا من بلاكستون ولا بد أنها من شخص يعمل في المختبر.. فكرت في رامسي ولكن بدا لي أن الأكثر احتمالاً أن تكوني أنت.. قلت لنفسي إنك أرسلتها لإجباري على فسخ خطوبتي..

وتنهد، فشهقت: «فيم فكرت؟».

- بدا لي التفسير الوحيد.. كنت متأكداً من حبي لك، وأريد أن أصدق أنك تحبينني.

نظرت بعيداً: «لا أدري لماذا تظن..»

لامس ثغرها بإصبعه الطويلة، فأسندت جسمها إلى الجدار خشية أن تقع..

سأل بصوت منخفض:

- ألا تدرين سيرينا؟

تسلل أصبعه إلى خدها، أرسلت اللمسة الحساسة على بشرتها ارتعاشة في كل أوصالها.

قالت بلهجة آمرة: «توقف عن هذا».

لكنه لم يرد.. إنه أكثر الرجال انعداماً للضمير فهو يدرك ما تفعله

أصابعه في ضربات قلبها وها هي عيناه تسخران من ضعفها.. كيف ستتمكن من صرفه عنها؟ كان دماغها في حالة تشوش وعجز بحيث لا تستطيع التفكير بصفاء.. عندما تذكرت فجأة تلك اللوحة التي شاهدتها في الكوخ نظرت إليه:

ـ من هي تلك المرأة في اللوحة التي في الكوخ.. أهي حب قديم؟

بدا غافلاً: «امرأة؟ لوحة؟ عمَ تتكلمين؟»

ـ حينما كنت في الكوخ، رأيت لوحة في غرفة الجلوس.

صفا وجهه: «آه.. تلك.. لم تكن شخصاً محدداً».

ـ لا تكن سخيفاً.. كانت داخل الكوخ وقد رسمت صورتها المتمكسة في المرآة.

«ضحك: «أعرف.. لكنني لم أكن أرسم امرأة حقيقية.. عندما كنت أرسم اللوحة، أدركت أن الكوخ ينقصه شيء، فاندفعت أرسم وجه المرأة في المرآة، لقد بدت لي لمسة مناسبة».

نظر إليها مستغرباً ووجهه يتغير.

ـ أمر غريب.. يومذاك فقط أدركت أن عليّ أن أتزوج.. أعتقد أن عقلي الباطني كان يقول لي شيئاً.. يشير إليّ أن ليس الكوخ وحده من نقصه امرأة.. بل أنا كذلك.

عبست سيرينا: «حسبتها كلاريسا».

ـ لا تكوني سخيفة.. لا تشبهها أبداً.. امرأة أحلامي كانت.. هكذا.. مجرد حلم. كنت أرسم ما أحس أنني بحاجة إليه. أشعر دائماً بالسعادة في الكوخ.. إنه مكان أستطيع أن أكون فيه حراً.. لكنني بدأت أدرك أنه لم يكن كاملاً وأنه بحاجة إلى شيء آخر، شخص آخر.

مال إلى الأمام يلثم شعرها وجبينها وخدها قبل أن تتمكن من إبعاده..

أردف: «إنه بحاجة إليك.. عرفت هذا منذ أن عانقتك.. لقد عشعشت في أفكاري منذ التقينك في حفلة الرقص.. ولكن، لم يخطر

ببالي أنني قد أعاني من الحب من النظرة الأولى حتى رأيتك في الكوخ. أتريدين معرفة من في الرسم؟ إنها أنت».

كانت أنفاس سيرينا مقطوعة بحيث كادت لا تستطيع الكلام. حوّلت رأسها بعيداً وهو يحاول معانقتها مجدداً.. وقالت بفظاظة:

ـ بدا لي أنها الكراهية من النظرة الأولى.

ـ تعرفين أن هذا غير صحيح. متى سيرينا؟ متى عرفت؟

وأجبرها بيده على أن تنظر إليه مجدداً فإذا عيناها خضراوان قاتمتان برّاقتان. وعاد يسأل:

ـ أخبريني متى أدركت أنك أحببتني؟

ـ لم أقل إنني أحبك! لا تضع الكلمات في فمي!

قال هامساً: «سأضع فيه كلمتين فقط».

أمسك فمها بلطف وفتح شفتيها:

ـ أنا.. أحبك.

وجدت سيرينا نفسها غير قادرة على المقاومة خاصة وقد التفت يده حول عنقها ليرفع لها رأسها. وفقدت القدرة على التنفس.

قال لها: «كرري هذه الكلمة كل ساعة حتى يزول كل شك في نفسك».

قالت: «آه! اخرس وعانقني».

مضى زمن طويل لم تعِ ما مدته، قالت بعده:

ـ أحبك.

وكررت قولها عدة مرات.. فأطلق ذراعيه حولها بشدة، بحيث بدا لها أن مجرد قدرتهما على التنفس هي معجزة علمية.

* * *